سُورَةُ التَّوبَةِ

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ ـ بيان أحكام الوفاء والنكث والموالاة.

٢ ـ إبطال العادات والتقاليد والمفاهيم المخالفة التي كان عليها أهل الجاهلية.

٣ ـ بيان أحكام التعامل مع المشركين والكتابيين في حالة الحرب والسلم.

٤ ـ تحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير؛ للقتال في سبيل الله، ونصرة النبي ﷺ.

٥ ـ الحديث عن غزوة تبوك.

٦ ـ بيان صفات المنافقين وأحوالهم.

٧ ـ بيان فضل المهاجرين والأنصار.

٨ ـ التحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

٩ ـ التذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

١٠ ـ بيان بعض أحكام الجهاد.

١١ ـ الكشف عن طبيعة الإسلام وحقيقته، وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدةً وسلوكاً.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ
يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ
إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟
ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

١ ـ ٢ ـ لما ذكر في آخر سورة الأنفال أَمْرَ العهد، تارةً بنَبْذِه إلى مَنْ خِيفت خيانته، وتارةً بالتمسك به عند الأمن من ذلك. ابتدأت هذه السورة بالأمر بالنبذ لأناس بأعيانهم، نقضوا أو خِيف منهم ذلك. وذلك تصريح بما أفهمته آيات الموالاة في سورة الأنفال من أن إحدى الفرقتين لا تصلح لموالاة الأخرى، فقال تعالى: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين المعاندين، ثم يأتي خطاب الله ﷻ للمؤمنين يُبَيِّن ما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برئ الله ورسوله من عهودهم، فأمرهم أن يقولوا لهم: سيروا في الأرض وأنتم آمنون لا يتعرض لكم أحد من المسلمين بقتالٍ مدةَ أربعة أشهر، واعلموا أنكم لن تُعْجِزوا الله، ولن تَفُوتوه، فتجدوا مهرباً منه، إذا أنتم أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله، بل سيسلط المؤمنين عليكم، ويؤيدهم بنصره الذي وعدهم به، والعاقبة للمتقين، فقد جرت سنة الله بخِزْيِ الكافرين منكم ومن غيركم في معاداتهم، وقتالهم لرسله في الدنيا والآخرة.

٣ ـ لما أنزل الله البراءة أمر بالإعلام بها في المجمع الأعظم ليقطع الحُجَج، إذ بيَّن أن هذا إعلام من الله ورسوله بالبراءة من عهود المشركين،

وسائر معتقداتهم في وقتٍ يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام، وهو يوم الحجِّ الأكبر يوم النحر الذي فيه تنتهي فرائض الحج، ويجتمع الحجَّاج لإتمام مناسكهم وسننهم في مِنى، ثم أكَّد ما يجب أن يُبَلِّغوه بلا تأخير بأن أمرهم أن يقولوا لهم: فإن تُبتم ورجعتم عن شرككم، وعن خيانتكم وغدركم بنقض العهد، وقَبِلْتم هدى الإسلام، فذلك خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ في هدايته سعادتَكم فيهما، وإن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة، فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه ولا فائتيه، ولن تُفْلِتُوا من حكم سُنَنه ووعده لرسله وللمؤمنين بالنصر والغَلَبة. وبَشِّرْ ـ أيُّها الرسول الكريم ـ مَنْ جحد رسالتك ولم يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر، بعذابٍ موجع في الآخرة.

٤ ـ ولما أعلمهم بالبراءة وبالوقت الذي يُؤْذن بها فيه، وكان معنى البراءة منهم أنَّه لا عهد لهم، استثنى بعض المعاهدين، بألَّا تُمْهِلُوا الناكثين للعهود فوق أربعة أشهر، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم، فلا تُجْرُوهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم، بل أتِمُّوا إليهم عهدهم إلى مدتهم، بشرط ألا ينقصوا شيئاً من شروط الميثاق ولا يُضارُّوكم، ولا يُعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم؛ لأنَّ المقصد من المعاهدات تَرْكُ قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر، وحرية التعامل بينهما. إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المتقين الذين يتحاشون نقض العهد، وسائر المفاسد التي تُخِلُّ بالنظام، وتمنع جريان العدل بين الناس.

٥ ـ وبعد أن ذكر سبحانه الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر معتقداتهم وضلالاتهم، أعقب ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم، والأمان الذي أُعْطِيَ لهم للضرب في الأرض فأمر المؤمنين أنه إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرَّم عليكم فيها قتال المشركين، فافعلوا معهم كلَّ ما ترونه موافقاً للمصلحة من القتال، لأنَّ الحال بينكم وبينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذي مُنِحْتُموه، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية، **أولاً**: قَتْلُهم في أيِّ مكان وجدوا فيه من حِلٍّ وحَرَم، **ثانياً**: أخذهم أسارى، **ثالثاً**: حَصْرُهم وحَبْسُهم حيث يُعْتصمون بمعقل أو حصن، بأن يُحاط بهم، ويُمنعوا من الخروج والانفلات،

حتى يُسْلِموا وينزلوا على حكمهم، بشرطٍ ترضونه أو بدون شرط، **رابعاً**: مراقبتهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه، ورؤية تجوالهم وتقلُّبهم في البلاد. فإن تابوا عن الشرك الذي يحملهم على عداوتكم وقتالكم، ودخلوا في الإسلام بأن نطقوا بالشهادتين، وأقاموا الصلاة المفروضة كما تقيمونها في الأوقات الخمسة، وآتوا الزكاة المفروضة، فخَلُّوا سبيلهم، واتركوا لهم طريق حريتهم بالكَفِّ عن قتالهم إذا كانوا مقاتلين، وبالكَفِّ عن حَصْرهم إذا كانوا محاصرين، وبالكَفِّ عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين. والله يغفر لهم ما سبق من الشرك وغيره من سيئاتهم، ويرحمهم فيمَنْ يرحم من عباده.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ افتتاح السورة بالبراءة وبدون بسملة يُدْخِلُ في النفس الرَّهبة الشَّديدة، والخوف الأشدَّ.

٢ ـ نسب (البراءة) إلى الله ورسوله من قِبَلِ أنه تشريع جديد شرعه الله، وأمر رسوله بتنفيذه، ونسب (معاهدة المشركين) إلى جماعة المؤمنين وإن كان الرسول هو الذي عقد العهد؛ لأنَّه عقده بوصفه الإمام والقائد لهم، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه.

٣ ـ الحكمة في تحديد مدة أربعة الأشهر: أن يكون لديهم فسحة من الوقت للنظر والتفكر في عاقبة أمرهم، والاختيار بين الإسلام والاستعداد للقتال، إذا هم أصَرُّوا على شِرْكهم وعدوانهم. وهذا منتهى ما يكون من الرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه المحاربين، حتى لا يقال: إنَّه أخذهم على غِرَّة.

٤ ـ في الآيات إيماء إلى أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يُوجبان ـ لِمَنْ يؤدِّيهما ـ أداءَ حقوق المسلمين من حفظ الدم والمال، وفق النصوص الشرعية.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ دليل على أنَّ مَن امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة يُقاتَلُ حتى يؤدِّيهما، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٦ ـ إضافة الأذان إلى الله ورسوله دون المسلمين في قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّه تشريع وحكم في مصالح الأُمة، فلا يكون إلا من الله على لسان رسوله ﷺ. وهذا أمرٌ للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة؛ لئلا يكونوا غادرين.

٧ ـ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأنَّ ذلك من التقوى، أي: من امتثال الشرع الذي أمر الله به، لأن الإخبار بمحبة الله المتقين عقب الأمر كناية عن كون المأمور به من التقوى.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ مستعملة في تعميم المراصد المظنون مرورُهم بها، تحذيراً للمسلمين من إضاعتهم الحراسة في المراصد، فيأتيهم العدو منها.

٩ ـ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل أُريد به حَثُّ المسلمين على ألَّا يتعرضوا بالسوء للذين يُسْلِمُون من المشركين، ولا يؤاخذهم لما فرط منهم.

١٠ ـ الإسلام يُقَدِّس العهود التي أمر الله بها، ويُوجب الوفاء بها، ويجعل احترامها نابعاً من الإيمان، وملازماً لتقوى الله تعالى.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

التفسير:

٦ ـ لما أمر تعالى بقتل المشركين حيث وُجِدوا، وأَخْذِهم وحَصْرِهم، ذكر لهم حالةً لا يُقْتَلون فيها، ولا يُؤْخَذُون ويُؤْسَرون، فيأمر الله نبيه ﷺ إن

طلب هؤلاء منه الأمان والجوار، فليجره وليأمنه على نفسه وأمواله لكي يسمع دعوة الإسلام، فإنَّ هذه فرصة للتبليغ، فإن اهتدى وآمن عن علم واقتناع فذاك، وإلا فالواجب تبليغه المكان الذي يأمن به على نفسه، ويكون حراً في عقيدته، إذ لا يكون للمسلمين سلطان عليه؛ لأنَّه من قوم جاهلين، لا يدرون ما الكتاب، وما الإيمان؟

٧ ـ ولما كان الأمر بالنبذ مَظِنَّةً لأن يُعْجَبَ منه، عجب كيف يكون للمشركين عهدٌ مع إضمار الغدر فيما وقع من العهود، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، وهم بنو كنانة وبنو ضمرة، لأنّهم ممَّن كان قد أقام على عهده، ولم يدخل في نَقْضِ ما كان بين رسول الله ﷺ وقريشٍ يوم الحديبية من العهد. فهؤلاء تَرَبَّصُوا بهم، ولا تقتلوهم ما استقاموا لكم على العهد، إذ لا يجوز أن يكون نَقْضُه من قِبَلِكم. إنَّ الله يحب الذين يتقون الغدر، ونَقْضَ العهد.

٨ ـ ولما أنكر سبحانه على المشركين بَيَّن السبب الموجب لذلك، مكرراً أداة الإنكار تأكيداً للمعنى كيف يكون لهم عهد مشروع عند الله، مَرْعِيُّ الوفاء عند رسوله، وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم: أنهم إن يظهروا عليكم في القوَّة والغلبة، لا يرقبوا الله، ولا القرابة في نقض العهد والميثاق؟ فهم يخادعونكم حال الضعف بما يقولونه من كلام معسول، يرون أنَّه يرضيكم، سواءً أكان عهداً أم وعداً أم أَيْماناً مؤكدة، وقلوبهم مملوءة ضغناً وحِقْداً، فهم إن ظهروا عليكم نَكَثُوا العهود، وحَنَثُوا بالأيمان، وفَتَكُوا بكم بقدر ما يستطيعون، وإنما يفعلون ذلك لأنَّ أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء.

٩ ـ استبدلوا بآيات الله العظيمة وما فيها من المعالم الحكيمة ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، وهو ما هم فيه من رخاء العيش وكثرة الأموال، فصدُّوا أنفسهم عن الإسلام بسبب هذا الشراء الخسيس، وما يقتضيه من الوفاء، وصَدُّوا غيرهم أيضاً. قَبُح عَمَلُهم الذي يعملونه من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى.

١٠ ـ ومن أجل هذا الكفر لا يَرْعَون في مؤمن يقدرون على الفتك به

قرابةً تقتضي الودَّ، ولا ذمة توجب الوفاء بالعهد. وهؤلاء البعداء عن الحق هم المتجاوزون للغاية القصوى من الظلم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآيات أنَّ التقليد في الدين غير كاف، وأنَّه لا بُدَّ من النظر والاستدلال، بدليل إمهال الكافر وتأمينه وتبليغه مَأْمَنَه لسماع أدلَّة الإيمان، فلا بُدَّ من الحُجَّة والبرهان.

٢ ـ وصف الأكثر في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لأنهم هم الناكثون، الناقضون لعهودهم، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى. وهذا من دقة القرآن وإنصافه في الأحكام.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ جعله قليلاً؛ لأنه زائل غير باقٍ، وما عند الله باقٍ دائم، وهو خيرٌ وأبقى.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه تعالى هو المتكلِّم به. وأضافه إلى نفسه إضافةَ الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة ومَنْ أخذ بقولهم: (إنَّ القرآن مخلوق).

٥ ـ مشروعيَّةُ الأمان، أي: جواز تأمين الحربي إذا طلبه من المسلمين؛ ليسمع ما يدلُّ على صحَّة الإسلام. وفي هذا سماحة ويسر في معاملة الكفار، ودليل على إيثار السِّلم.

٦ ـ استخدام حرف المهلة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ للدلالة على وجوب استمرار إجارته في أرض الإسلام، إلى أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه، ولو بَلَغَه بعد مدة طويلة، فحَرْفُ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخي الرُّتْبي اهتماماً بإبلاغه مأمنه.

٧ ـ يجب علينا تعليم كلِّ مَن التمس منَّا تعلُّمَ شيء من أحكام الدِّين.

٨ ـ يجب على الإمام حماية الحربي المستجير، وصون دمه وماله ونفسه من الأذى، ومنع التعرُّض له بأي ضَرْبٍ من ضروب الإيذاء.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١١ ـ فإن رَجَعَ هؤلاء المشركون الذين أَمَرْتُكم بقتالهم عن شركهم بالله، إلى الإيمان به وبرسوله، وأنابوا إليه وأطاعوه، فأدُّوا الصلاة بشروطها وأركانها، وآتوا الزكاة المفروضة، فهم إخوانكم في الدين الذي آمُرُكم به، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم. وبهذه الأخوَّة يزول كل ما كان بينكم من عداوات. وإنا نُبَيِّن حُجَجَنا وأدلَّتنا على خَلْقِنا لقومٍ يعلمون ما نُبَيِّن لهم، بعد أن نشرحها مفصَّلَةً فيَفْقَهوها.

١٢ ـ وإن نكث هؤلاء ما أَبْرَمَتْه أيمانُهم من الوفاء بالعهد الذي عقدوه معكم، وعابوا دينكم، واستهزؤوا به، وصَدُّوا الناس عنه، ومن ذلك: الطعنُ في القرآن وفي النبي ﷺ، فقاتِلوهم فهم قيادة الكفر وحملة لوائه؛ رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونَقْضِ العهود.

١٣ ـ وبعد أن أمر سبحانه بقتال أئمة الكفر ذكر أسباب ذلك وهي ثلاثة، **الأول**: إنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي ﷺ وأصحابه على ترك القتال عشر سنين، يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها أحراراً في دينهم. **الثاني**: إنهم هَمُّوا بإخراج الرسول ﷺ من وطنه، أو حَبْسِه حتى لا يُبَلِّغ رسالته، أو قَتْلِه بأيدي عصبة من بطون قريش ليتفرَّق دمه في القبائل، فتتعذَّرَ المطالبة به. **الثالث**: إنهم بدؤوا بقتال المؤمنين في بدر حين قالوا بعد

العلم بنجاة عِيرهم: لا ننصرفُ حتى نستأصلَ محمداً وأصحابه. من أجل ذلك حَرَّضَ على قتالهم. أبعد هذا كله تتركون قتالهم خوفاً منكم وجبناً؟ فالله أحقُّ أن تخشَوا مخالفة أمره، وتَرْكَ مخالفة عدوِّه.

١٤ ـ ١٥ ـ وبعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم، وفنَّدَ الشبه المانعة من ذلك، أمرهم به أمراً صريحاً مع وَعْدِه لهم بالنصر، وإظهار المؤمنين عليهم، قاتلوهم كما أمرتكم، فإنكم إن فعلتم ذلك يُعَذِّبْهم الله بأيديكم ويُمَكِّنكم من رقابهم قتلاً، ومن صدورهم ونحورهم طعناً، ويُخْزِهم بذُلِّ الأسر والقهر والفقر لمن لم يُقتل منهم، وينصركم عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد هذا، ويَشْفِ صدوركم مما نالوا منكم من الأذى ولم تكونوا تستطيعون دفْعَه، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِكمْ، وما كان قد وَقَرَ فيها مِنْ غدر المشركين، وظلمهم. ومَنْ تاب منهم، فسيتوب الله عليهم مِنْ شركهم، ويُوَفقهم للإيمان، ويتقبله منهم. وهو العليم بما لا تعلمون من استعدادهم في الحال والاستقبال، الحكيم فيما يشرع لهم من الأحكام.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ يجب على المؤمن أن يكون أشجع الناس، وأعلاهم همة، ولا يخشى إلا الله.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ خبر لمحذوف، أي: فهم إخوانكم. وصِيغَ هذا الخبر بالجملة الاسمية، للدلالة على أنَّ إيمانهم يقتضي ثبات الأخوة ودوامها، تنبيهاً على أنَّهم يعودون كالمؤمنين السابقين من قبل في أصل الأخوة الدينية.

٣ ـ في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ إسناد التعذيب إلى الله، وجُعِلت أيدي المسلمين آلة له تشريفاً للمسلمين، وإشارة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب.

٤ ـ خَصَّ سبحانه قادة الكفر في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وهم الرؤساء الطاعنون في دين الرحمن، الناصرون لدين الشيطان؛ لعِظَمِ جنايتهم؛ ولأنَّ غيرهم تَبَعٌ لهم.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾

يدلُّ على محبة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدلُّ على أنَّ قتال الكفار وغلبة المسلمين إياهم قد ينشأ عنها إسلام كثير من الناس، فانتصار المسلمين قد يردُّ بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى.

٧ ـ في الآيتين (١٤) و(١٥) إخبار مستقبلي وبُشرى من الله ﷻ إن نفَّذ المؤمنون أمْرَه، فقاتلوا أعداء الله، فإنَّه سوف يجازيهم بالنصر من عنده، وسيُعَذِّبُ هؤلاء المشركين بأيدي المؤمنين، ويُذِلُّهم بالهزيمة والخزي، ويُعلي كلمته، ويَشْفي صدور المؤمنين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟
مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى
ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ
وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

التفسير:

١٦ ـ وبعد أن أمر سبحانه بالجهاد بيَّن أنه ابتلاء: أظننتم أن تُتركوا وشأنَكم بغير فتنة ولا امتحان، ولم يتبين الخُلَّص من المجاهدين منكم، الذين لم يتخذوا لأنفسهم بِطانة من المشركين، الذين يُحادُّون الله تعالى بالشرك به، ومن المنافقين الذين يُطْلِعُون البِطانة الدخلاءَ من المشركين على أسرار الملة، ويُوقفونهم على سياسة الأُمة، كما يفعل المنافقون في كل

زمان، واللهُ يعلم ما يصير منكم ويصدر، فيبتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرِها وشَرِّها.

١٧ ـ ولما حَذَّرهم من اتخاذ بطانة دُخَلاء من المشركين من دونه، شرع يبيِّن أنَّ البطانة الدخلاء من المشركين التي يتخذها بعضهم لا تصلح للاتصاف بمحاسن الأعمال، ما لم تكن على أساس الإيمان: ما كان من شأن المشركين، ولا مما ينبغي لهم أن يعمروا مساجد الله التي منها المسجد الحرام بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة والولاية عليه، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً بعبادتهم للأصنام والاستشفاع بها. أولئك المشركون الكافرون بالله، وبما جاء به رسولُه قد بَطَلَتْ أعمالهم، فلم يبق له أثر في صلاح أنفسهم، ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده، وهم مقيمون في دار العذاب إقامة خلود وبقاء دائم.

١٨ ـ إنَّ المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله وتوحيده، واختصاصه بالعبادة والتوكل عليه، والإيمان بالبعث والجزاء، مع إقامة الصلاة المفروضة على وجه جامع بين أركانها وآدابها، وإعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين، وخشية الله دون غيره مما لا ينفع ولا يضر. فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية هم الذين يَرْجُون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حِسّاً ومعنى، وبذا يستحقون عليها الجزاء في جنات النعيم.

١٩ ـ سبب النزول:

عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَلَّا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَلَّا أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا.

(صحيح مسلم، كتاب الإمارة ـ باب فَضْلِ الشَّهَادَةِ في سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، برقم ١٨٧٩، ٣/ ١٤٩٩).

التفسير:

لا ينبغي أن تجعلوا أهلَ سقاية المسجد الحرام وعمارته في الفضيلة، كمَنْ آمن بالله وبالبعث والجزاء وجاهد في سبيل الله، فإنَّ السِّقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البِرِّ والخير، فأصحابهما لا يُدانون أهل الإيمان والجهاد في علوِّ المرتبة وشرف المقدار. واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى الحق في أعمالهم ولا يهديهم إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم.

٢٠ ـ ثم بيَّن سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم مع المشركين الظالمين: فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسي والمالي أعلى مرتبة، وأعظم كرامة. وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته، دون مَنْ لم يكن مُسْتَجْمِعاً لهذه الصفات الثلاث، وإن سقى الحاجَّ وعَمَّر المسجد الحرام.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ شرع الله الجهاد؛ لإعلاء كلمة الله تعالى بنشر الإسلام.

٢ ـ العمارة الممنوعة عن المشركين للمساجد هي الولاية عليها، والاستقلال بالقيام بمصالحها، كأن يكون الكافر ناظراً للمسجد وأوقافه. أما استخدام الكافر في عملٍ لا ولايةَ فيه، كنَحْتِ الحجارة والبناء والنجارة فلا يدخل في ذلك. وللمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجداً بناه، أو أوصى ببنائه أو ترميمه، إذا لم يكن في ذلك ضرر.

٣ ـ لا ثواب للمشركين في الآخرة على أعمال البِرِّ التي تصدر عنهم في الدنيا.

٤ ـ دلَّ قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ على الترغيب في عمارة المساجد، وأنه ينبغي لِمَنْ بنى مسجداً أن يُخلص لله في بنائه، وألَّا يقصد الرياء والسمعة.

٥ ـ دلَّت الآيات على أنَّ الجهاد مع الإيمان أفضل عند الله من أي عمل آخر من أعمال الخير والبر؛ لأنَّه بَذْلٌ للنفس أو المال، بقصد إعلاء كلمة

الله، وأمَّا السِّقاية وعمارة المسجد الحرام فهما وإن كانا عملين طيبين، إلا أنهما ليسا في الدرجة مثل الجهاد.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي
مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ
عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير:

٢١ ـ ٢٢ ـ لما ذكر الفوز العظيم فصَّل سبحانه ذلك الفوز العظيم، فقال: يُبَشِّرهم ربهم في كتابه على لسان رسوله ﷺ، وعلى لسان ملائكته حين الموت، برحمة منه ورضوان من لدنه، لا يشوبه سخط، وجناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ولهم فيها نعيم لا يزول على عِظَمِه وكماله، حال كونهم خالدين فيها أبداً. إنَّ ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل، لا يقدر قَدْرَه إلا الله الذي تَفَضَّل به، ومَنَحَه لعباده المكرمين.

٢٣ ـ ولما كان مَحَطُّ الموالاة المناصرة، وكانت النصرة بالآباء والإخوان أعظم من النصرة بغيرهم، اقتصر عليها، فنهى المؤمنين عن اتخاذ الآباء والإخوان أنصاراً، إذا كانوا قد اختاروا طريق الضلال، والشِّرك بالله تعالى، ومَنْ يَتَوَلَّهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولُّون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم، بوَضْعِهم الموالاة في غير موضعها، فهم قد وضعوا الولاية في موضع البراءة، والمودَّة في محلِّ العداوة.

٢٤ ـ وبعد أن بَيَّن ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان، انتقل إلى بيان سبب ذلك، فأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: وإن كنتم تُفَضِّلُون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله الذي وُعِدْتُم عليه أنواع السعادة الأبدية في الآخرة، فانتظروا حتى يأتي الله بعقوبته التي تَحُلُّ بكم عاجلاً أو آجلاً. والله لا يهدي القوم الخارجين من حدود الدين.

٢٥ ـ ولما كان في بعض النفوس من الغُرور بالكثرة ما يُكسبها سكرة غفلتها عن بعض مواقع القدرة، ذكر الله تعالى قصة حنين دليلاً على ذلك فامتنَّ على المؤمنين: ولقد نصركم الله ـ أيها المؤمنون ـ في أماكن حرب تُوَطِّنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم في صعيد واحد للطِّعان والنِّزال؛ إحقاقاً للحق وإظهاراً لدينه، ونصركم أيضاً في يوم حنين، وهو اليوم الذي أعجبتكم فيه كثرتكم، إذ كنتم اثني عشر ألفاً، وكان الكافرون أربعة آلاف فقط، فقال قائل منكم: «لن نُغْلَبَ اليوم من قلة»، فلم تنفعكم الكثرة، فغلبكم العدو في الجولة الأولى، وضاقت عليكم الأرض الواسعة، فلم تجدوا ملجَأً تُحَصِّنون أنفسكم فيه، فتولَّى فريق منكم منهزمين.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ أسند التبشير في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ إلى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾؛ لما في ذلك من الإحسان إليهم، بأنَّ مالكَ أمْرِهم، والناظر في مصالحهم هو الذي يُبَشِّرهم. وإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدُّد، مُؤْذِنٌ بتعاقُبِ الخيرات عليهم، وتجدُّدِ إدخال السرور بذلك لهم.

٢ ـ قَدَّم الرضوان على الجنات في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾؛ لأنَّ رضا الله عن العبد أعظم من إسكانهم الجنة، ولأنه هو الغاية، والجنة هي الثمرة.

٣ ـ ذكر الآباء والإخوان في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لأنَّهم أهل الرأي والمشورة، ولم يُذْكر الأبناء لأنَّهم في الغالب تَبَعٌ لآبائهم.

٤ ـ ذكر الأبناء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ لأنَّه ذكر المحبة، وهم أعلق بالنفس، بخلاف الآية قبلَها فلم يُذْكَروا، لأنَّ المقصود منها الرأي والمشورة. وقَدَّم الآباء؛ لأنَّهم الذين يجب بِرُّهم وإكرامُهم وحُبُّهم، وثَنَّى بالأبناء لكونهم أعلقَ بالقلوب.

٥ ـ أفاد التعبير بـ ﴿أَحَبَّ﴾ على التفضيل، والتفضيل في المحبة يقتضي إرضاء الأقوى من المحبوبين، ففي هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين، مع جعل ذلك التهاون نتيجةَ تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله.

٦ ـ أسند النصر إلى الله بالصراحة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ لإظهار أنَّ إيثار محبَّة الله، وإن كان يُفَوِّت بعض حظوظ الدنيا، ففيه حَظُّ الآخرة، وفيه حظوظ أخرى من الدنيا، وهي حظوظ النصر بما فيه من تأييد الجماعة المسلمة، والمغانم، وحماية الأُمة من اعتداء أعدائها، وذلك من فضل الله إذ آثروا محبته على محبَّة علائقهم الدنيوية.

٧ ـ تخصيص يوم حُنين بالذِّكْر من بين أيام الحروب؛ لما فيه من العِبْرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله ﷺ، وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال، ففيه مَثَلٌ وشاهدٌ لحالتي الإيثارين المذكورين.

٨ ـ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ تنبيهٌ على خَطَئِهم في الأدب مع الله المناسب لمقامه، أي: ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم.

٩ ـ ينظر: خريطة موقع غزوة حُنين، كما في الملحق.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٦ ـ ٢٧ ـ وبعد الجولة الأولى من المعركة، أنزل الله تعالى سكينةً من لدنه على رسوله ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين الذين ثبتوا معه، وأحاطوا ببَغْلَتِه الشَّهباء، وعلى سائر المؤمنين الصادقين، فأذهب رَوْعَهم، وأزال حيرتهم، وأنزل مع هذه السكينة ملائكة مجنَّدة لم تَرَوْها بأبصاركم، بل وَجَدْتُم أثرَها في قلوبكم بما عاد إليها من رباطة الجأش وشدة البأس، وعَذَّب الذين كفروا بالقَتْل والسَّبْي والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا ما داموا يَسْتَحِبُّون الكفر على الإيمان، ويُعادُون أهله، ويقاتلونهم عليه، ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على مَنْ يشاء من الكافرين، فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تُحِطْ بهم خطيئات الشرك وظلماته، ولم يَخْتِمْ على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب، وهو غفور لهم يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي، رحيم بهم يتفضَّل عليهم، ويثيبهم بالأجر والجزاء.

٢٨ ـ ووَفْقَ ما تقدَّم في الأوامر والنواهي، وبيان الحِكَم المرغِّبة والمرهِّبة، بَيَّنَ العلة في مدافعتهم وإحكام مقاطعتهم فبيَّن سبحانه أنَّ المشركين أنجاس فاسدو الاعتقاد، يُشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع، فلا تُمَكِّنوهم بعد هذا العام ـ التاسع من الهجرة ـ من أن يدخلوا المسجد الحرام، وإن خفتم فَقْراً بسبب قلة جَلْبِ الأقوات، وضروب التجارات التي

كان يجلبها المشركون، فسوف يرزقكم الله من بركاته. إنَّه عليم بما يكون من مستقبل أمركم في الغنى والفقر، حكيمٌ فيما يشرعه لكم من أمر ونهي.

٢٩ ـ يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكافرين الذين لا يؤمنون بالله رباً لا شريك له، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يجتنبون ما حرَّمه الله ورسوله عليهم من الميتة ولحم الخنزير والخمر والربا، ولا يخضعون لما شرعه الله، من اليهود والنصارى حتى يدفعوا إليكم الجزية بأيديهم أذِلَّاءَ مقهورين، بشرط أن تكون صادرة من قُدْرَة وسَعَة، فلا يظلموا ولا يرهقوا، فإن أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم، والدفاع عنهم، وإعطاؤهم حريتهم في دينهم، ومعاملتهم بالعدل والمساواة، ويحرم ظُلْمَهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تعليق السَّكينة بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنها سَكينة خارقة للعادة، ليست لها أسباب ومقدمات ظاهرة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله وتكوينه، كرامةً لنبيه ﷺ، ولذلك قَدَّم ذِكْرَ الرسول قبل ذِكْرِ المؤمنين.

٢ ـ إعادة حرف (على) بعد حرف العطف تنبيه على تجديد تعليق الفعل بالمجرور الثاني؛ للإيماء إلى التفاوت بين السكينتين: فسكينة الرسول ﷺ سكينة اطمئنان على المسلمين الذين معه، وثقة بالنصر، وسكينة المؤمنين سكينة ثبات وشجاعة، بعد الجزع والخوف.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ بالمضارع دون الفعل الماضي؛ لإفادة تجدُّد التوبة على كل مَنْ تاب إلى الله.

٤ ـ صيغة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة، حتى كأنهم لا وصف لهم إلا ذلك.

٥ ـ قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ تقتضي نَهْيَ المسلمين عن أن يقرب المشركون المسجد الحرام.

٦ ـ في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي أنَّ الله تعالى سوف يُغني المؤمنين، فلا خوف من الفقر.

٧ ـ قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ تأكيد لمعنى ﴿يُعْطُوا۟﴾ للتنصيص على الإعطاء،

و﴿عَن﴾ فيه للمجاوزة، أي: يدفعوها بأيديهم، ولا يُقبل منهم إرسالها ولا الحوالة فيها، ومحلُّ المجرور الحال من الجزية. والمراد يد المعطي أي: يعطوها غير ممتنعين، ولا منازعين في إعطائها.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ استدلَّ بها الجمهور الذين يقولون: لا تُؤْخذ الجزية إلا من أهل الكتاب؛ لأنَّ الله لم يذكر أَخْذَ الجزية إلا منهم. وأمَّا غيرهم فلم يَذْكُرْ إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق بأهل الكتاب المجوسَ في أَخْذِ الجزية وإقرارِهم في ديار المسلمين؛ فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ، ثم أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس. (تفسير السعدي: ٣٣٤).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

التفسير:

٣٠ ـ يخبر الله تعالى عن عدم التزام اليهود والنصارى بكتبهم وأنَّهم مشركون، فاليهود أشركوا بالله لما ادعوا أنَّ عزيراً ابن الله، والنصارى أشركوا به لما ادَّعَوا أن المسيح عيسى ابن الله. ذلك القول افتروه بأفواههم دون إقامة برهان عليه، وهم يشابهون في هذا القول قول المشركين من قبلهم الذين قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، أهلكهم الله، كيف يُصْرَفُون عن الحق البيِّن إلى الباطل؟

٣١ ـ بالغ اليهود والنصارى في الغُلُوِّ بعلمائهم وأنبيائهم وعُبَّادهم،

فجعلوهم أرباباً من دون الله، يُحِلُّون لهم ما حَرَّمه الله عليهم، ويُحَرِّمون عليهم ما أحلَّه الله لهم، وجعل النصارى المسيح عيسى ابن مريم إلهاً مع الله، وما أمر الله علماء اليهود وعُبَّاد النصارى وعزيراً وعيسى ابن مريم إلا أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا به شيئاً، فهو سبحانه إله واحد، لا معبودَ بحق سواه. تَنَزَّه سبحانه وتَقَدَّس أن يكون له شريك في ألوهيته بدعاء غيرِه معه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع بدون إذنه.

٣٢ ـ يريد اليهود والنصارى أن يُطْفِئُوا نور الله، وهو دين الإسلام الذي أرسل به جميع رسله، بالطعن فيه والصدِّ عنه بالباطل بمثل تلك الأقوال في عُزَير والمسيح، وبما ابتدعه لهم الرؤساء من التشريع حتى صار التوحيد مَحْضَ الشرك عندهم، ويَأْبَى اللهُ إلَّا أنْ يُتِمَّ نُورَه ببعثة محمد خاتم النبيين ﷺ، الذي أرسله إلى الخلق أجمعين، وجعل آيته الكبرى ـ وهي القرآن ـ معجزة دائمة، وكَفَلَ حِفْظَها إلى آخر الزمان، وبيَّن لهم فيه ما يحتاجون إليه من عقائد يؤيدها البرهان، ولو كره الجاحدون ظهور الدين.

٣٣ ـ ثم بيَّن إتمام نوره فقال: إنَّه تعالى كفل إتمام هذا النور؛ بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق، الذي لا يغيِّره دين آخر، ولا يبطله شيء آخر، ثم ذكر الغاية من إرسال محمد خاتم النبيين بدين الحق، فقال: ليُعْلي هذا الدين، ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والسيادة والسلطان، ولو كره المشركون ذلك، فإنَّ الله مُقَدِّره رغم أنوفهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ إسنادُ القول بأن عزير ابن الله لليهود والقول بأن المسيح ابن الله للنصارى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ مبنيٌّ على أنَّ الأُمة تُعَدُّ متكافلة في شؤونها العامة، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير في جملتها، والمنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم يُنْكِره عليه جمهورهم ويُزيلوه، يُؤاخَذون به كلهم.

٢ ـ قال ابن العربي ـ يرحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: «في هذا دليل من قول رَبِّنا تبارك وتعالى على أنَّ مَنْ أخبر عن

كُفْرِ غيره ـ الذي لا يجوز لأحد أن يبتدئ به ـ لا حرج عليه؛ لأنَّه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له، والردِّ عليه، فلا يمنع ذلك منه، ولو شاء ربُّنا ما تكلَّم به أحد، فإذا مكَّن من إطلاق الألسن به، فقد أَذِنَ بالإخبار عنه على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والردِّ عليه بالحجَّة والبرهان». (أحكام القرآن: ٢/ ٩١٣).

٣ ـ إضافة النور إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى أنَّ محاولة إطفائه عبث، وأنَّ أصحاب تلك المحاولة لا يَبْلُغون مُرادهم.

٤ ـ قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ صيغة قصر، أي: هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يُطْفِئُونه؟

٥ ـ وصف الإسلام بقوله: ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ تنويهاً بفَضْله، وتعريضاً بأنَّ ما عليه اليهود والنصارى ليس بهدى ولا حق.

٦ ـ أبان الله ﷻ في الآيات أنَّ الغَلَبَةَ إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة، فلا يَغْلِبُون بكثرتهم.

٧ ـ ذِكْرُ المشركين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ ظهور دين الإسلام أشدُّ حسرة عليهم من كلِّ أُمة؛ لأنَّهم الذين ابتدَؤوا بمعارضته وعداوته، ودَعَوا الأُمم للتألُّب عليه، واستنصروا بهم فلم يغنوا عنهم شيئاً؛ ولأنَّ أتمَّ مظاهر انتصار الإسلام كان في جزيرة العرب وهي ديار المشركين؛ لأنَّ الإسلام غَلَبَ عليها، وزالت منها جميع الأديان الأخرى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾

التفسير:

٣٤ ـ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: مَرَرْتُ بِالرَّبَذَةِ، فَإِذَا أَنَا بِأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْزَلَكَ مَنْزِلَكَ هَذَا؟ قَالَ: كُنْتُ بِالشَّأْمِ فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ مُعَاوِيَةُ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ. فَقُلْتُ: نَزَلَتْ فِينَا وَفِيهِمْ. (صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة التوبة، برقم٤٦٦٠).

لـمَّا ذكر عز وجل أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ذكر حال كثيرٍ منهم؛ تنقيصاً من شأنهم وتحقيراً لهم، وأنَّ مثل هؤلاء لا ينبغي تعظيمهم، فخاطب الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما شرعه الله لهم، بأنَّ كثيراً من علماء اليهود، وكثيراً من عُبَّاد النصارى، لَيأخذون أموال الناس بغير حق شرعي، فهم يأخذونها بالرشوة وغيرها، وهم يمنعون الناس

عن متابعة الدين الحق في خاصة النفس، وإغراء الناس بالإعراض عنه، والذين يجمعون الذهب والفضة، ولا يُؤَدُّون ما يجب عليهم من زكاتها، فأَخْبِرْهم ـ أيها الرسول ـ بما يَسُوءُهم يوم القيامة من عذاب موجع.

٣٥ ـ يوم القيامة يُحمى على ما جمعوه، ومنعوا حقه في نار جهنم، فإذا اشتدَّتْ حرارتها وُضِعَتْ على جباههم، وعلى جنوبهم، وعلى ظهورهم، ويقال لهم على سبيل التوبيخ: هذه هي أموالكم التي جمعتموها، ولم تُؤَدُّوا الحقوق الواجبة فيها، فذوقوا عاقبة ما كنتم تجمعون، ولا تُؤَدُّون حقوقَه.

٣٦ ـ إنَّ عدد شهور السنة في حكم الله وقضائه اثنا عشر شهراً، لا أقل، ولا أكثر، فيما أثبته الله في اللوح المحفوظ أول ما خلق السموات والأرض. من هذه الأشهر الاثني عشر أربعة أشهر حُرُم، حَرَّمَ الله فيهنَّ القتال، وهي ثلاثةٌ سَرْدٌ: (ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم)، وواحد فرد، وهو (رجب). ذلك الخبر العظيم المذكور من عدد شهور السنة، ومن تحريم أربعة منها هو الدين المستقيم، فلا تظلموا في هذه الأشهر الحرم أنفسكم بإيقاع القتال فيها، وهَتْكِ حرمتها، وقاتلوا المشركين جميعاً، كما أنهم يقاتلونكم جميعاً. واعلموا أن الله مع الذين يتقونه بامتثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه بالنصر والتثبيت، ومَنْ كان الله معه فلن يغلبه أحد.

٣٧ ـ إنَّ التأخير لحرمة شهر المحرم إلى شهر غير المحرم، وجَعْلَه مكانه ـ كما كان يفعل العرب في الجاهلية ـ زيادة في الكفر على كفرهم بالله، إذ كفروا بحكمه في الأشهر الحرم، يُضِلُّ بها الشيطانُ الذين كفروا بالله، حين سَنَّ لهم هذه السُّنَّةَ السيئة، يُحِلُّون الشهر الحرام عاماً فيُبْدِلون به شهراً من شهور الحِلِّ، ويبقونه على تحريمه عاماً؛ ليوافقوا عدد الأشهر التي حَرَّم الله، وإن خالفوا أعيانها، فلا يُحِلُّون شهراً إلا حَرَّموا مكانه شهراً، فيُحِلُّوا بذلك ما حَرَّمه الله من الأشهر الحرم، ويخالفوا حكمه، زيَّن لهم الشيطان الأعمال السيئة، فعملوها، ومنها ما ابتدعوه من النسيء. والله لا يوفق الكافرين المُصِرِّين على كفرهم.

٣٨ ـ ولما بيَّن الله سبحانه أمر الجهاد، وأزاح جميع عِلَلِهم، عاتبهم على تَخَلُّفهم عن رسول الله: يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بما

شرعه لهم، ما شأنُكم إذا دُعيتم إلى الجهاد في سبيل الله لقتال عدوكم تباطأتم، ومِلْتُم إلى الاستقرار في مساكنكم، أرَضِيتم بمتاع الحياة الدنيا الزائلة ولَذَّاتها المنقطعة، عوضاً عن نعيم الآخرة الدائم الذي أعدَّه الله للمجاهدين في سبيله؟ فما متاعُ الحياة الدنيا في جنب الآخرة إلا حقير، فكيف لعاقل أن يختار فانياً على باقٍ، وحقيراً على عظيم؟

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ضرورة القيام بكشف ما يضمره أهل الكتاب للإسلام من الممالأة، والتألُّب على مناوأة الدين.

٢ ـ تحريم أكل أموال الناس بالباطل، والصدِّ عن سبيل الله تعالى.

٣ ـ تحريم اكتناز المال دون احتساب زكاته، وإنفاقه في سبيل الله.

٤ ـ الحرص على تقوى الله في السر والعلن، ولاسيما عند قتال الكفار، فإنَّه في هذه الحال ربما ترك المؤمن التقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

٥ ـ أسند ﷻ الحكم إلى كثير من أهل الكتاب دون جميعهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾؛ لأنهم لم يَخْلُوا من وجود الصالحين فيهم.

٦ ـ أسند الله ﷻ الفعل المبني للمجهول إلى المجرور ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، لعدم تعلق الغرض بذكر المفعول المحميِّ لظهوره، إذ هو النار التي تُحمى، ثم أكَّد معنى التمكن بمعنى الظرفية التي في قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فصارت الأموال محميةً عليها النارُ وموضوعةً في النار. وبإضافة النار إلى جهنم عُلِم أن المحميَّ هو نار جهنم التي هي أشدُّ نارٍ في الحرارة، فجاء تركيباً بديعاً من البلاغة والمبالغة في إيجاز.

٧ ـ قوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ للتنديم والتغليظ. ولام التعليل مؤذنة بقصد الانتفاع؛ لأنَّ الفعلَ الذي عَلَّلَ بها هو من فعل المخاطب، وهو لا يفعل شيئاً لأجل نفسه إلا لأنَّه يريد به راحتها ونَفْعَها، فلما آل بهم الكنز إلى العذاب الأليم خابوا وخَسِرُوا فيما انتفعوا به من الذهب والفضة، بما كان أضعافاً مضاعفة من ألم العذاب. وجملة ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ توبيخ وتنديم.

٨ ـ تيسير الله تعالى لعباده ليعرفوا عدد الأيام والشهور القمرية لمعرفة أوقات العبادات وضبط التواريخ في المصالح الدنيوية والأخروية، ومحور هذه الأشهر هو القمر الذي اقترن خلقه بخلق السموات والأرض في يوم واحد. (ح)

٩ ـ يستنبط من الآية اقتران تاريخ خلق القمر بتاريخ خلق السموات والأرض، فقد خُلِقُوا في يوم واحد، وبما أن القمر يستمد ضوءه من الشمس فيستنتج أن الشمس أيضاً خُلِقَت في التاريخ نفسه. (ح)

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا
وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ
ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ
لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التفسير:

٣٩ ـ لما رغَّبهم ﷻ في الجهاد بناءً على الترغيب في ثواب الآخرة، رغَّبهم في الجهاد بناءً على أنواع أُخَرَ من الأمور المقوية للدواعي: إلا تنفروا ـ أيها المؤمنون ـ للجهاد في سبيل الله؛ لقتال عدوكم يعاقبكم الله بالقهر والإذلال وغيره، ويُبدل بكم أقواماً مطيعين لله، إذا استُنْفِروا للجهاد نفروا، ولا تَضُرُّوه شيئاً بمخالفتكم أَمْرَه، فهو غنيٌّ عنكم، وأنتم الفقراء إليه. والله

على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء، فهو قادر على نَصْرِ دينه ونبيِّه من دونكم.

٤٠ ـ ثم رَغَّبهم ثانية في الجهاد، فأبان لهم أنَّه تعالى المتوكِّلُ بنصره ـ على أعداء دينه ـ أعانوه أو لم يعينوه، وقد فعل ذلك به في أشدِّ الأوقات: إلَّا تنصروا ـ أيها المؤمنون ـ رسولَ الله ﷺ، وتستجيبوا لدعوته للجهاد في سبيل الله، فقد نصره الله حين أخرجه المشركون هو وأبو بكر رضي الله عنه، لا ثالث لهما حين كانا في غار ثور مُخْتَفِيَيْن من الكفار الذين كانوا يبحثون عنهما، حين يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق حين خاف عليه أن يُدركه المشركون: لا تحزن إنَّ الله معنا بتأييده ونصره، فأنزل الله الطمأنينة على قلب رسوله، وآزره بجنود يؤيدونه، لا تشاهدونهم وهم الملائكة، وصيَّر كلمة المشركين السفلى، وكلمة الله هي العليا دائماً. والله عزيز في ذاته وقهره ومُلْكه، لا يغالبه أحد، حكيم في تدبيره وقدره وشرعه.

٤١ ـ وبعد أن تَوَعَّد مَنْ لم ينفروا مع الرسول، وتثاقلوا حين استنفرهم، أتبعه بالأمر الجازم الذي لا هوادة فيه، فأوجب النفير العام على كل فرد، فلا عذر لأحد في التخلُّف وتَرْكِ الطاعة، فقال: سيروا ـ أيها المؤمنون ـ للجهاد في سبيل الله في العسر واليسر، شباباً وشيوخاً، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلك الخروج في سبيل الله والجهاد بالأموال والأنفس أكثر نفعاً في الحياة الدنيا والآخرة، من القعود والتعلُّق بسلامة الأموال والأنفس، أما في الدين فلا سعادة إلا لِمَنْ ينصر الحق ويُقيم العدل، وأما في الدنيا فإنَّه لا عزَّ للأُمم ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية والعُدَّة التي هي وسيلة لدفاع العدو وكَبْحِ جماحه، إن كنتم تعلمون علماً يبعث على العمل.

٤٢ ـ وبعد أن رَغَّبهم سبحانه في الجهاد في سبيل الله، وبَيَّن أنَّ فريقاً منهم تباطَؤُوا وتثاقلوا، أتبع ذلك ببيان أنَّ فريقاً منهم تخلَّفوا عنه، وطَفِقُوا ينتحلون الأعذار الواهية، ويستأذنونه ﷺ في القعود والتخلف ليأذن لهم، فقال: لو كان ما تدعون إليه الذين استأذنوك من المنافقين في التخلف غنيمة سهلة وسفراً لا مشقة فيه لاتَّبعوك أيها النبي، ولكن بَعُدَتْ عليهم المسافة التي دعوتهم لقَطْعها إلى العدو، فتخَلَّفوا، وسيحلف بالله هؤلاء المستأذنون من

المنافقين في التخلف عندما ترجع إليهم: لو استطعنا الخروج إلى الجهاد معكم لَخرجنا. يهلكون أنفسهم بتعريضها لعقاب الله؛ بسبب هذه الأيمان الكاذبة، والله يعلم أنَّهم كاذبون في دعواهم، وفي أيمانهم هذه.

٤٣ ـ ثم عاتب الله نبيَّه ﷺ في إذنه لِمَنْ تَخَلَّف عنه من المنافقين: عفا الله عنك ـ أيها الرسول ـ في اجتهادك في الإذن لهم في التخلُّف، فلِمَ أَذِنْتَ لهم فيه؟ حتى يتضح لك الصادقون في أعذارهم التي قَدَّمُوها، والكاذبون فيها، فتأذنَ للصادقين منهم، دون الكاذبين.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ بأنَّ الأُمم التي لا تُدَافِعُ عن نفسها، ولا تحمي ذِمارها، لا بقاء لها، وتكون فريسة للطامعين، وغنيمة للمعتدين.

٢ ـ التهاون في النفير حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب؛ لِما فيها من المضارِّ الشديدة.

٣ ـ السكينة من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تَطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

٤ ـ قد يعرض الحزن لخواصِّ عباد الله الصِّدِّيقين، مع أنَّ الأولى ـ إذا نزل بالعبد ـ أن يسعى في ذهابه عنه، فإنَّه مُضْعِفٌ للقلب، مُوهِنٌ للعزيمة.

٥ ـ لم يذكر اسم مَنْ هو الثاني في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾؛ لكون الثاني معلوماً للسامعين كلهم ـ وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ، ولأنَّ المقصود تعظيم هذا النصر مع قلة العدد.

٦ ـ أشعر قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أنَّ أمر المشركين كان بمظنَّةِ القوة والشدة؛ لأنَّهم أصحاب عدد كثير وفيهم أهل الرأي والذكاء، ولكنهم لما شاقُّوا الله ورسوله خذلهم الله، وقَلَبَ حالهم من علو إلى سفل.

٧ ـ جملة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام؛ لأنَّه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنَّها صارت سفلى، أفاد أنَّ العلاء انحصر في دين الله وشأنه، فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف

كلمة الله على كلمة الذين كفروا، إذ ليس المقصود إفادةَ جَعْلِ كلمة الله عليا، لما يُشْعر به الجَعْلُ من إحداث الحالة، بل إفادة أنَّ العلاء ثابت لها، ومقصور عليها.

٨ ـ الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ عامٌّ للذين استُنْفِروا فتثاقلوا، وإنما استُنْفِرَ القادرون، وكان الاستنفار على قدر حاجة الغزو، فلا يقتضي هذا الأمر تَوَجُّهَ وجوب النفير على كلِّ مسلم في كل غزوة.

٩ ـ المقصود من وقوع قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالاً من فاعل ﴿ٱنفِرُواْ﴾ هو الأمر بالنفير في جميع الأحوال.

١٠ ـ تقديم الأموال على الأنفس في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ لأهميته، ولأنَّ الجهاد بالنفس لا يتهيأ إلا بالجهاد المالي.

١١ ـ تَعَمُّد اليمين الفاجرة يُفضي إلى الهلاك.

١٢ ـ جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ حال، أي: هم يفعلون ذلك في حال عدم جدواه عليهم، لأنَّ الله يعلم كذبهم، أي: ويُطْلِعُ رسوله على كَذِبهم، فما جَنَوا من الحَلْفِ إلا هلاك أنفسهم.

١٣ ـ افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إكرام عظيم للرسول ﷺ، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب، وأُلْقِيَ إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة؛ إيماءً إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم إلا لسبب تَأَوَّلَه، ورجا منه الصلاح.

١٤ ـ ينظر: خريطة موقع غزوة تبوك، كما في الملحق.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

التفسير:

٤٤ ـ ليس من شأن المؤمنين بالله، وبيوم القيامة، إيماناً صادقاً أن يطلبوا منك ـ أيها الرسول ـ الإذْنَ في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل شأنهم أن ينفروا متى استُنْفِروا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم. والله عليم بالمتقين من عباده الذين لا يستأذنونك إلا لأعذارٍ تمنعهم من الخروج معك.

٤٥ ـ إنَّ الذين يطلبون منك ـ أيها الرسول ـ الإذن في التخلُّف عن الجهاد في سبيل الله هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بيوم القيامة، وأصاب قلوبَهم الشكُّ في دين الله، فهم في شَكِّهم يتردَّدون حيارى، لا يهتدون إلى الحق.

٤٦ ـ ولو كانوا صادقين في دعوى أنهم يريدون الخروج معك للجهاد في سبيل الله؛ لَتَأَهَّبُوا له بإعداد العُدَّة، ولكن أبغضَ اللهُ خروجَهم معك، فأخَّرَهم عنه، وأهانهم فقيل لهم: اقعدوا مع القاعدين من النساء والصبيان والمرضى.

٤٧ ـ ولما كان تَخَلُّف هؤلاء قد يُحزن المؤمنين، طمأنهم الله بأنَّ خروجهم أكثر ضرراً من تَخَلُّفهم، فقال: من الخير ألَّا يخرج هؤلاء المنافقون معكم، فهم إن خرجوا معكم ما زادوكم إلا فساداً بما يقومون به من التخذيل وإلقاء الشُّبَه، ولأسرعوا في صفوفكم بنشر النميمة لتفريقكم. والحال أنَّ فيكم

ـ أيها المؤمنون ـ مَنْ يستمع إلى ما يُرَوِّجونه من الكذب، فيقبله، وينشره بينكم، فينشأ الاختلاف بينكم. والله عليم بالظالمين من المنافقين الذين يُلقون الدسائس والشكوك بين المؤمنين.

٤٨ ـ ثم ذكر الله ﷻ نوعاً آخر من مكر المنافقين، وفساد باطنهم، فقال: لقد طلب هؤلاء المنافقون الإفساد بتفريق كلمة المؤمنين، وتشتيت شملهم من قبل غزوة تبوك، ونَوَّعُوا وصرفوا لك ـ أيها الرسول ـ الأمور بتدبير الحِيَلِ، لعلَّ حِيَلَهم تُوهن في عزمك على الجهاد، حتى جاء نصر الله، وتأييده لك، وأعزَّ الله دينه وقهر أعداءه، وهم كارهون لذلك؛ لأنهم كانوا يرغبون في انتصار الباطل على الحق.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب الجهاد بالنفس والمال، حيث اقتضت الحاجة ذلك.

٢ ـ العبد الكامل العبودية لله هو المتعبد لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة.

٣ ـ للجهاد ثمرة يانعة عظيمة، فهو يحقق إحدى الحسنيين: إمَّا النصر بإعلاء كلمة الله، وإعزاز المسلمين، وإمَّا الشهادة في سبيل الله، فيتحقق القرار في نعيم الآخرة، والاستمتاع بالخلود في الجنة.

٤ ـ وجوب الاحتراز عن العجلة، ووجوب التثبُّت والتأنِّي، وترك الاغترار بظواهر الأمور.

٥ ـ المؤمنون بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم.

٦ ـ الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للدَّلالة على تجدُّد نفي إيمانهم.

٧ ـ الإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ للدلالة على قِدَمِ ذلك الارتياب ورسوخه؛ فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾

التفسير:

٤٩ ـ ولما أشار سبحانه إلى أنَّ من المنافقين مَنِ استأذن في الخروج، توطئة للاعتذار عنه، شرع يفصل ذلك: ومن المنافقين مَنْ يعتذر بالأعذار المختلقة فيقول: يا رسول الله ائذن لي في التخلُّف عن الجهاد، ولا تحملني على الخروج معك، حتى لا أصيب ذنباً بسبب فتنة نساء الروم إذا شاهَدْتُهن. ألا قد سقطوا في فتنة أعظم مما زعموا، وهي فتنة النفاق. إنَّ جهنم يوم القيامة لمحيطة بالكافرين، لا يفوتها منهم أحد، ولا يجدون عنها مهرباً.

٥٠ ـ ثم ذكر ﷻ نوعاً آخر من كيد المنافقين، ومِنْ فساد بواطنهم، مخاطباً الرسول ﷺ: إن نالتك ـ يا رسول الله ـ نعمة من الله بما يَسُرُّك من نصر أو غنيمة كرهوا ذلك، وحزنوا له، وإن نالتك مصيبة من شدةٍ أو انتصارِ عدو قال هؤلاء المنافقون: قد احتَطْنا لأنفسنا، وأَخَذْنا بالحذر حين لم نخرج للقتال كما خرج المؤمنون، فأصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، ويرجع هؤلاء المنافقون إلى أهليهم مسرورين بالسلامة.

٥١ ـ قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء المنافقين: لن ينالَنا إلا ما كتبه الله لنا، فهو سبحانه سيدنا، الملجأ الذي نلجأ إليه، ونحن متوكلون عليه في أمورنا، وعليه وحده يتوكل المؤمنون، فهو كافيهم، ونِعْمَ الوكيل.

٥٢ ـ قل ـ أيها الرسول ـ لهم: هل تنتظرون أن يقع لنا إلا النصر أو

الشهادة، وهما عاقبتان حُسْنَيان، ونحن ننتظر بكم أن يُنزل بكم الله إحدى مَساءتين: مساءة بعذاب من عنده يهلككم، أو مساءة بتعذيبكم بأيدينا بقتلكم وأَسْرِكم إذا أَذِنَ لنا بقتالكم، فانتظروا عاقبتنا، إنا مُنْتظرون عاقبتكم.

٥٣ ـ ولما كان جملة ما يصيب المنافقين من العذاب الإنفاق بتزكية ما طَهُرَ من أموالهم بالإعانة في سبيل الله خوفاً من اتهامهم بالنفاق في أقوالهم؛ ليفتدوا أنفسهم به من السفر: قل ـ أيها الرسول ـ لهم: ابذُلوا ما تبذلون من أموالكم طوعاً أو كرهاً، لن يُتَقَبَّل منكم ما أنفقتم منها لكفركم، وخروجكم عن طاعة الله.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الأعذار الكاذبة لا تخفى على الله، فهو المُطَّلع على الغيوبِ، وأسرار النفوس، وخفايا ما في الصدور، فلا يَغْتَرَّنَّ أحدٌ بذكائه وفِطْنته في تعمية الحقائق.

٢ ـ الإيمان يدفع صاحبه إلى اقتحام الأهوال ومجابهة الصعاب، والتضحية والفداء في سبيل الحق.

٣ ـ من سنن الله الجارية أَخْذُ الظالمين بذنوبهم، فالذنوبُ آفة الحضارات.

٤ ـ التوكُّل على الله بمعنى تفويض الأمر إليه بعد اتخاذ الأسباب من أصول الإيمان.

٥ ـ التعريف في الفتنة في قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرف في جنسه، أي: في الفتنة العظيمة سقطوا، فأيُّ وجه فُرض في المراد من الفتنة حين قال قائلهم ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ كان ما وقع فيه أشد مما لم يقع، فإن أراد فتنة الدين فهو واقع في أعظم الفتنة بالشرك والنفاق، وإن أراد فتنة سوء السمعة بالتخلُّف فقد وقع في أعظم الفتنة بافتضاح أمْرِ نفاقِهم، وإن أراد فتنة النكد بفراق الأهل والمال فقد وقع في أعظمِ نَكَدٍ بكونه مكروهاً مبغوضاً للناس.

٦ ـ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ دعوة إلى الرضا والتسليم، وهو ألَّا يحزنوا لما يصيبهم؛ لئلا يَهِنُوا وتذهب قوتهم، وأن يرضوا بما قدَّر الله لهم، ويرجوا رضا ربهم؛ لأنهم واثقون بأنَّ الله يريد نَصْرَ

دينه. وفي الآية دليل لأهل السنة على أنَّ قضاء الله شامل لكل المُحْدَثات، وأنَّ تَغَيُّرَ الشيء عمَّا قَضَى الله به محال.

٧ ـ جملة ﴿هُوَ مَوْلَـٰنَا﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضة أي: لا يصيبنا إلا ما قدَّره الله لنا، ولنا الرجاء بأنَّه لا يُكتب لنا إلا ما فيه خيرُنا العاجلُ أو الآجل، لأنَّ المولى لا يَرْضى لمولاه الخِزْيَ.

٨ ـ اختيار لفظ الفاسقين بدل الكافرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ لأنَّهم يُظْهِرون الإسلام، ويُبْطِنُون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر. والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

التفسير:

٥٤ ـ وما منعهم من قَبُول نفقاتهم إلا ثلاثة أمور: كُفْرُهم بالله وبرسوله، وكَسَلُهم وتثاقلهم إذا صَلَّوا، وأنهم لا ينفقون أموالهم طوعاً، وإنما ينفقونها كرهاً؛ لأنهم لا يرجون ثواباً في صلاتهم، ولا في إنفاقهم.

٥٥ ـ ولما انتفى عن أموالهم النفع الأُخْروي الذي هو النفع، قال مبيِّناً ما فيها من الفساد الذي يظن أنه صلاح: فلا تعجبك ـ أيها الرسول ـ أموال المنافقين، ولا أولادهم، ولا تستحسنها، فعاقبة أموالهم وأولادهم سيئة، فالله يجعلها عذاباً عليهم بالكَدِّ والتعب لتحصيلها، وبما ينزل من مصائب فيها إلى أن يخرج الله أرواحهم حال كفرهم، فيُعَذَّبون بالخلود في الدَّرْك الأسفل من النار.

٥٦ ـ ويحلف المنافقون لكم ـ أيها المؤمنون ـ كاذبين: إنهم لمن

جملتكم، وهم ليسوا منكم في بواطنهم وإن أظهروا أنهم منكم، لكنهم قوم يخافون، فهم جبناء في القتال، ويخافون أن يحلَّ بهم ما حَلَّ بالمشركين من القتل والسبي، فيظهرون الإسلام تقية.

٥٧ ـ لو يجد هؤلاء المنافقون ملجأً من حصن يحفظون فيه أنفسهم، أو يجدون كهوفاً في الجبال يختبئون فيها، أو يجدون نَفَقاً يدخلون فيه لالتجَؤُوا إليه، ودخلوا فيه وهم مسرعون سرعة الفرس الجامح.

٥٨ ـ سبب النزول:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ذو الخويصرة فقال: اعدل. فقال: **وَيْلَكَ مَنْ يعدل إذا لم أعدل؟** فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

(صحيح البخاري: كتاب استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج، برقم ٦٩٣٣).

التفسير:

ومن المنافقين مَنْ يَعيبك ـ أيها الرسول ـ في قسمة الصدقات، عندما لا ينالون منها ما يريدون، فإن أعطيتهم منها ما يطلبون رَضُوا عنك، وإن لم تُعْطِهم ما يطلبون منها أظهروا التذمُّر.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الأموال والأولاد قد تكون سبباً للعذاب في الدنيا، وقد تكون سبباً للعذاب في الآخرة، فليتعامل العبد معهما بما يُرضي مولاه، فتتحقق بهما النجاة.

٢ ـ ذكر سبحانه من أعمال البر الصلاة والنفقة؛ لأنَّ الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام، ويستدلُّ بهما على الإيمان.

٣ ـ تعداد القبائح يزيد الموصوف بها ذماً وتقبيحاً.

٤ ـ ينبغي للعبد ألَّا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابتُ القلب، يرجو ذُخْرَها وثوابَها من الله وحده، فذاك دليل الإيمان والبعد عن النفاق.

٥ ـ إنَّ أفعال الكافر الخيرية كصلة القَرابة، وإغاثة الملهوف، قد تفيده في الدنيا بدفع ضرر أو سوء، ولكن لا يُثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة.

٦ ـ الأيمان الكاذبة والإقدام عليها، ومنها دعوى الإيمان من أخلاق المنافقين.

٧ ـ اختيار صيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ وقوله: ﴿يَفْرَقُونَ﴾؛ للدلالة على التجدُّد، وذلك دأبهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

التفسير:

٥٩ ـ ولو أنَّ هؤلاء المنافقين الذين يَعيبونك في قسمة الصدقات رَضُوا بما فرضه الله لهم، وبما أعطاهم رسولُه منها، وقالوا: كافينا الله، سيعطينا الله من فضله ما شاء، وسيعطينا رسولُه مما أعطاه الله. إنَّا إلى الله وحده راغبون أن يُعطينا من فضله، لو أنهم فعلوا ذلك لَكان خيراً لهم.

٦٠ ـ ولما عابوا رسول الله ﷺ في قسمتها بَيَّن لهم مصارِفَها ومُسْتَحقيها: إنما الزَّكَوات الواجبة يجب أن تُصْرف للفقراء، وهم المحتاجون الذين لا يَمْلكون شيئاً، وللمساكين الذين لا يملكون كفايتهم، وللسعاة الذين يُرسلهم الإمام لـجَمْعِها، وللكفار الذين يُتَأَلَّفون بها ليُسْلِمُوا، أو لضَعَفَةِ

الإيمان ليقوى إيمانهم، أو لمن يُدْفَعُ بها شَرُّه، وتُصْرَفُ في الأرِقَّاء ليعتقوا بها، وللمَدينين في غير إسراف ولا معصية، إن لم يجدوا وفاءً لما عليهم من دَيْن، وتُصْرَفُ في تجهيز المجاهدين في سبيل الله، وللمسافر الذي انقطعت نفقته. وقَصْرُ صَرْفِ الزَّكَوات على هؤلاء فريضة من الله. والله عليم بمصالح عباده، حكيم في تدبيره وشرعه.

٦١ ـ ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من جهالات المنافقين فبيَّن أن من المنافقين مَنْ يُؤذون رسول الله ﷺ بالكلام، فيقولون لما شاهدوا حِلْمه ﷺ: إنَّه يسمع من كلِّ أحد ويُصَدِّقُه، ولا يميز بين الحق والباطل، قل لهم ـ أيها الرسول ـ: إنَّ الرسول لا يسمع إلا الخير، يُصَدِّق بالله، ويُصَدِّق ما يخبر به المؤمنون، والذين يؤذونه ﷺ بأيِّ نوع من أنواع الإيذاء لهم عذاب موجع.

٦٢ ـ يحلف المنافقون بالله لكم ـ أيها المؤمنون ـ إنَّهم لم يقولوا شيئاً يُؤْذي النبي ﷺ؛ ذلك ليُرْضوكم، والله ورسوله أولى بالإرضاء بالإيمان والعمل الصالح، إن كان هؤلاء مؤمنين حقاً.

٦٣ ـ ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنهم بعملهم هذا مُعادون لله ولرسوله، وأنَّ مَنْ يعاديهما يدخل يوم القيامة نار جهنم ماكثاً فيها أبداً. وذلك هو الهوان والذل الكبير.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ينبغي للعبد أن يكون هواه تَبَعاً لمرضاة مولاه.

٢ ـ لو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسدُّ الثغور، ويجاهد به الكفار، وتحصل به جميع المصالح الدينية والدنيوية.

٣ ـ توزيع الزكاة موكول لاجتهاد ولاة الأمور، يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال.

٤ ـ إيذاء الرسول ﷺ فيما يتعلق برسالته كفرٌ يترتب عليه العقاب الشديد.

٥ ـ ينبغي للعبد أن يكون أُذُنَ خيرٍ لا أُذُنَ شرٍّ، يستمع إلى ما فيه الصلاح والخير، ويُعْرِضُ ترفُّعاً وإباء عن سماع الشر والفساد.

٦ ـ تقديم المجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لإفادة القصر، أي: إلى الله راغبون، لا إلى غيره.

٧ ـ الإخبار بـ ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾ من صيغ التشبيه البليغ، أي: كالأذن في تَلَقِّي المسموعات لا تَرُدُّ منها شيئاً، وهو كناية عن تصديقه بكل ما يَسْمَعُ من دون تمييز بين المقبول والمردود.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

التفسير:

٦٤ ـ ولما عَلَّل فِعْلَ المستهينين أتبعه تعليلَ أمرِ صنف آخَرَ أخفَّ منهم نفاقاً بما عندهم مما يقارب التصديق فقال: يخاف المنافقون أن ينزل الله على رسوله سورةً تُطْلِع المؤمنين على ما يضمرونه من الكفر، قل ـ أيها الرسول ـ: استمِرُّوا ـ أيها المنافقون ـ على استهزائكم وسخريتكم، فالله مخرج ما تخافون بإنزال سورة أو بإخبار رسوله بذلك.

٦٥ ـ سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُوناً، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَنْكُبُهُ

الْحِجَارَةُ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾. (تفسير ابن أبي حاتم: ٤/ ٦٣).

التفسير:

ولئن سألت ـ أيها الرسول ـ المنافقين عمَّا قالوا من الطعن، وسَبِّ المؤمنين بعد إخبار الله لك به ليقولُنَّ: كنا في حديث نمزح فيه ولم نكن جادِّين. قل أيها الرسول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟

٦٦ ـ لَـمَّا وصفهم بالنفاق حَقَّقه بعدم مبادرتهم إلى التوبة التي هي فعل المؤمنين، وباجترائهم على الإنكار مع كون السائل لهم قد بلغ الغاية في الجلال والكمال، فقال: لا تعتذروا بهذه الأعذار الكاذبة، فقد أظهرتم الكفر باستهزائكم بعد أن كنتم تُضْمِرُونه، إن نتجاوز عن فريق منكم؛ لتَرْكِه النفاقَ وتوبتِه منه، وإخلاصه لله، نُعَذِّبْ فريقاً منكم لإصرارهم على النفاق، وعدم توبتهم منه.

٦٧ ـ المنافقون رجالاً ونساءً متفقون في أحوال النفاق، وهم على النقيض من المؤمنين، فهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويبخلون بأموالهم، فلا ينفقونها في سبيل الله، أعرضوا عن الله فغفلوا عنه، فلا يذكرونه إلا قليلاً، فأغفلهم الله من رحمته. إنَّ المنافقين هم الخارجون عن طاعة الله وطريق الحق إلى معصيته وطريق الضلال.

٦٨ ـ وعد الله المنافقين والكفار الذين لم يتوبوا نار جهنم، ماكثين فيها أبداً، هي كافيتهم عقاباً، وطَرَدَهم الله من رحمته، ولهم عذاب مستمر.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تَعْداد قبائح المنافقين وهي: الإقدامُ على الأيمان الكاذبة، ومعاداة الله ورسوله، والاستهزاء بالقرآن والنبي والمؤمنين، والاعتذار بأنهم هازلون لاعبون.

٢ ـ لا يُقبل الهزل في الدين وأحكامه، ويُعَدُّ الخوض في كتاب الله ورسله وصفاته كفراً، ولا خلاف بين الأُمة في أن الهزل بالكفر كفر، لأنَّ الهزل أخو الباطل والجهل.

٣ ـ التوبة عن النفاق أو الكفر مقبولة، فمَنْ تاب عُفِيَ عنه، ومَنْ أصرَّ على الكفر أو النفاق عوقب في جهنم.

٤ ـ مَنْ حلف فليحلف بالله أو ليصمت، ومن حُلِفَ له فليُصَدِّقْ.

٥ ـ شمل قوله: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ جميع المنافقين والمنافقات؛ لأنَّ كل فرد هو بعض من الجميع، فإذا كان كل بعض متصلاً ببعض آخر، عُلِمَ أنهم سواء في الأحوال.

٦ ـ وَحَّدَ ﷻ الضمير في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله، فكانا في حكم مَرْضِيّ واحد.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب؛ للإشعار ببُعْدِ درجته في الهول والشناعة.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ
فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ
أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾
وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ
جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

التفسير:

٦٩ ـ ولما كان حالهم في الإقبال على العاجلة لكونها حاصلة، والإعراض عن العاقبة لأنها غائبة، مشابهاً لحال مَنْ كان قبلهم من الأُمم

الخالية والقرون الماضية، بَيَّنَ لهم ذلك، وختم ببيان سوء أحوالهم، وقُبْحِ مآلهم بتلاشي أعمالهم، موبخاً لهم: أنتم ـ يا معشر المنافقين ـ في الكفر والاستهزاء مثلُ الأُمم المكذِّبة مِنْ قبلكم، كانوا أعظم قوة منكم، وأكثر أموالاً وأولاداً، فتمتَّعوا بنصيبهم المكتوب لهم من مَلَذَّات الدنيا وشهواتها، فتمتعتم أنتم ـ أيها المنافقون ـ بنصيبكم المقدَّرِ لكم من ذلك، مثل تمتُّع الأُمم المكذبة السابقة بنصيبهم، وخُضْتم في التكذيب بالحق، والطعن في الرسول، مثل خوضهم في التكذيب به والطعن برسلهم. أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة هم الذين بَطَلَتْ أعمالهم لفسادها عند الله بالكفر، وهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك.

٧٠ ـ ألم يَبْلُغْ هؤلاء المنافقين خبرُ ما فعلَتْه الأُمم المكذبة، وما فُعِل بها من عقاب: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين، وقرى قوم لوط، جاءتهم رُسُلُهم بالبراهين الواضحة والحُجَج الجلية، فما كان الله ليظلمَهم، فقد أنذَرَتْهم رُسُلُهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بما كانوا عليه من الكفر بالله، وتكذيب رسله.

٧١ ـ لما بيَّن سبحانه وَصْفَ المنافقين بالأعمال الفاسدة والأفعال الخبيثة، ذكر في هذه الآية وصف المؤمنين بالخير وأعمال البر، ثم ذكر أنواع ما أعَدَّ الله لهم من الثواب الدائم، والنعيم المقيم: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أنصار بعض، يأمرون بالمعروف، وهو اسم جامع لكلِّ ما عُرِف حُسْنُه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وينهون عن المنكر، وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، ويُؤَدُّون الصلاة كاملةً على أكمل وجه، ويطيعون الله، ويطيعون رسوله، أولئك المتصفون بهذه الصفات الحميدة سيدخلهم الله في رحمته. إنَّ الله عزيز، لا يُغالبه أحد، حكيم في خَلْقه وتدبيره وشَرْعِه.

٧٢ ـ ولما ذَكَرَ الوعد في الآية الأولى على سبيل الإجمال، ذكره في هذه الآية على سبيل التفصيل: وعد الله المؤمنين والمؤمنات أن يُدْخِلَهم يوم القيامة جناتٍ تجري من تحت قصورها الأنهار ماكثين فيها دائماً، لا يموتون

فيها ولا ينقطع نعيمهم، ووَعَدَهم أن يدخلهم مساكن حسنة في جنات إقامة، ورضوان يُحِلُّه الله عليهم أكبر من ذلك كله. ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا يُدانيه فوز.

٧٣ ـ يا أيها الرسول، جاهِدِ الكفَّار بقتالهم بالسيف، وجاهد المنافقين باللسان والحجة، واشْدُد على الفريقين فهم أهل لذلك، ومَقَرُّهم يوم القيامة جهنم، وساء المصير مصيرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآيات ثناءٌ على قوة البدن والعمل، وأنها تقوم مقام المال. وهذا أصل عظيم في تقدير أصول الثروة العامة، والتنويه بشأن العامل.

٢ ـ النِّفاق: مرض عُضال متأصِّل في البشر، وأصحاب ذلك المرض متشابهون في كل عصر وزمان في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وقبض أيديهم وإمساكهم عن الإنفاق في سبيل الله للجهاد، وفيما يجب عليهم من حق.

٣ ـ الجزاء من جنس العمل. فالذي يترك أوامر الله، ويأتي بنواهيه، يتركهم من رحمته.

٤ ـ سبب العذاب للكفار والمنافقين واحد في كل العصور، وهو إيثار الدنيا على الآخرة، والاستمتاع بها، وتكذيب الأنبياء والمكر والخديعة والغدر بهم.

٥ ـ إهلاك الأُمم والأقوام الغابرة إنما هو بسبب كفرهم وتكذيبهم الأنبياء، فيه عظة وعبرة للمُعْتَبِرِ من العقلاء.

٦ ـ لا عقوبة إلا بذنب.

٧ ـ إن أهل الإيمان رجالاً ونساءً أُمة واحدة مترابطة متعاونة متناصرة، قلوبهم متحدة في التوادِّ والتحابِّ والتعاطف.

٨ ـ رضا رب الأرض والسموات أكبر من نعيم الجنات؛ لما في ذلك من غاية الرضا والإسعاد.

٩ ـ إن أهل الإيمان من الذكور والإناث متناصرون متعاضدون، وقد كان

التعاون بين المسلمين والمسلمات قائماً في الميادين والمواقف الحاسمة كلها كالهجرة والجهاد، مع اعتصام الرجال بالعِفَّة، وغَضِّ البصر، واعتصام النساء بالأدب الجمِّ والحياء، والتعفُّف وغض البصر، والاحتشام في الحديث واللباس والعمل.

١٠ ـ قرن الله ﷻ المنافقين بالكفار في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تنبيهاً على أنَّ سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، وفائدة الجمع بين الكفار والمنافقين في الجهاد إلقاء الرعب في قلوبهم، فإنَّ كل واحد منهم يخشى أن يظهر أمره، فيُعامَلَ معاملة الكفار المحاربين، فيكون ذلك خاضداً شوكتهم.

١١ ـ ينظر: خريطة موقع قوم مدين، كما في الملحق.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

التفسير:

٧٤ ـ ولما أتى بالدليل العام على إجرام المنافقين أتبعه بالدليل الخاص عليه: يحلف المنافقون بالله كاذبين: ما قالوا ما بَلَغَكَ عنهم من السَّبِّ لك، والعيب لدينك. ولقد قالوا ما بلغك عنهم مما يكفِّرهم، وأظهروا الكفر بعد إظهارهم الإيمان، ولقد هَمُّوا بما لم يظفروا به من الفتك بالنبي ﷺ، وما أنكروا شيئاً إلا شيئاً لا ينكر، وهو أنَّ الله تَفَضَّل عليهم بإغنائهم من الغنائم التي مَنَّ بها على نبيِّه، فإن يتوبوا إلى الله من نفاقهم تكن توبتهم منه

خيراً لهم من البقاء عليه، وإن يَتَوَلَّوا عن التوبة إلى الله يعذبهم عذاباً موجعاً في الدنيا بالقتل والأسر، ويعذبهم عذاباً موجعاً في الآخرة بالنار، وليس لهم وَليٌّ يَتَوَلَّاهم، فينقذهم من العذاب، ولا ناصر يدفع عنهم العذاب.

٧٥ ـ ومن المنافقين مَنْ عاهد الله قائلاً: لئن أعطانا الله من فضله لَنتصدَّقَنَّ على المحتاجين، ولَنكونَنَّ من الصالحين الذين صلحت أعمالهم.

٧٦ ـ فلما أعطاهم الله سبحانه من فضله لم يَفُوا بما عاهدوا الله عليه، بل بخلوا، فلم يتصدقوا بشيء، وتَوَلَّوا وهم مُعْرِضون عن الإيمان.

٧٧ ـ فجعل عاقبتهم نفاقاً ثابتاً في قلوبهم إلى يوم القيامة؛ عقاباً لهم على خُلْفِهم لعهد الله، وعلى كذبهم.

٧٨ ـ ألم يعلم المنافقون أنَّ الله يعلم ما يُخفون من الكيد والمكر في مجالسهم، وأنَّ الله سبحانه علَّام الغيوب؟ فلا يخفى عليه من أعمالهم شيء، وسيجازيهم عليها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآيات دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك مع المؤمنين.

٢ ـ وجوب جهاد الكفار والمنافقين باليد والسِّنان، والحجة والبرهان إذا اجتمعت الضوابط الشرعية اللازمة لذلك.

٣ ـ المنافقون من شرّ الناس لأنهم غادرون، يُقابِلون الإحسان بالإساءة.

٤ ـ في الآيات دلالة على أنَّ نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه.

٥ ـ عدم الاغترار بما أعطى الله في الدنيا من الأموال والأولاد للكافرين والمنافقين، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم.

٦ ـ جيء بالفعل (يَكُ) في جواب الشرط دون أن يقال: فإن يتوبوا فهو خير لهم؛ لتأكيد وقوع الخير عند التوبة، والإيماء إلى أنَّه لا يحصل الخير إلا عند التوبة؛ لأنَّ فِعْلَ التكوين مؤذن بذلك.

٧ ـ عبَّر ﷻ عن كَذِبِ المنافقين بصيغة ﴿كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾؛ لدلالة (كان)

على أنَّ الكذب كائن فيهم ومتمكِّن منهم، ودلالة المضارع على تَكَرُّره وتجدُّده. وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة؛ فإنها تفسد الأخلاق الصالحة.

٨ ـ عطف ﷻ النجوى على السِّر في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ مع أنه أعمُّ منها؛ لينبئهم باطلاعه على ما يتناجُون به من الكيد والطعن.

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

٧٩ ـ سبب النزول:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي. وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا. فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة التوبة، برقم ٤٦٦٨).

التفسير:

ثم ذكر الله ﷻ نوعاً آخر من أعمال المنافقين القبيحة، وهو لَمْزُهم مَنْ يأتي بالصدقات طوعاً وطبعاً، أولئك الذين يَعيبون المتطوعين من المؤمنين

ببذل الصدقات اليسيرة، الذين لا يجدون إلا شيئاً قليلاً هو حاصلُ ما يقدرون عليه، فيسخرون منهم قائلين: ماذا تُجْدي صَدَقَتُهم؟ سَخِرَ الله منهم جزاءً على سخريتهم بالمؤمنين، ولهم عذاب موجع.

٨٠ ـ اطلب ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء المنافقين المغفرة من الله، أو لا تطلبها لهم، فطَلَبُها لهم، وتَرْكُ طَلَبِها سواء. إن تطلب لهم المغفرة كثيراً فلن يغفر الله لهم؛ بسبب كفرهم بالله، وتكذيبهم لرسوله. والله لا يُوَفِّقُ القوم المتمردين على دينه، الخارجين عن طاعته.

٨١ ـ فرح المتخلِّفون من المنافقين عن غزوة تبوك بقعودهم عن الجهاد في سبيل الله مخالفين رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله كما يجاهد المؤمنون، وقالوا مُثَبِّطين لإخوانهم من المنافقين: لا تسيروا في الحر، وكانت غزوة تبوك في وقت الحر. قل لهم أيها الرسول: نار جهنم التي تنتظر المنافقين أشدُّ حَرّاً من هذا الحرِّ الذي فرُّوا منه لو يعلمون.

٨٢ ـ فليضحَكْ هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد قليلاً في حياتهم الدنيا الفانية، ولْيبكوا كثيراً في حياتهم الآخرة الباقية؛ جزاءً على ما اكتسبوه من الكفر والمعاصي والآثام في الدنيا.

٨٣ ـ فإن أعادك الله ـ أيها النبيُّ ـ إلى فريقٍ من هؤلاء المنافقين، ثابتٍ على نفاقه، فطلبوا منك الإذن بالخروج معك في غزوة أخرى، فقل لهم: لن تخرجوا ـ أيها المنافقون ـ معي للجهاد في سبيل الله أبداً عقوبةً لكم، وحَذَراً من المفاسد المترتبة على وجودكم معي، فقد رضيتم بالقعود والتخلف في غزوة تبوك، فاقعدوا، وابقوا مع المتخلفين من المرضى والنساء والصبيان.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

٢ ـ فَرَحُ المنافقين زائل، لكنَّ بكاءهم دائم.

٣ ـ الآيات تَدُلُّ على قِصَرِ نَظَرِ الإنسان، فهو ينظر غالباً إلى الحال والواقع الذي هو فيه، ولا ينظر إلى المستقبل، وما يَتَمَخَّض عنه من أحداث.

٤ ـ لا يدرك المنافقون أسرار حكمة الله في الأمر بالجهاد.

٥ ـ اختيار المضارع في ﴿يَلْمِزُونَ﴾ و﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ للدلالة على التكرر.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ غير مراد به المقدار من العدد، بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تُستعمل في معنى الكثرة.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وَصَفَ المخلَّفين بصيغة اسم المفعول؛ لأنَّ النبي خَلَّفهم، وفيه إيماء إلى أنَّه ما أَذِنَ لهم في التخلف إلا لعِلْمِه بفساد قلوبهم، وأنَّهم لا يُغْنُون عن المسلمين شيئاً، وذِكْرُ فَرَحِهم دلالةٌ على نفاقهم؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلُّف نَكَداً عليهم ونَغَصاً، كما وقع للثلاثة الذين خُلِّفُوا، فتاب الله عليهم.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

٨٤ ـ سبب النزول:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَال: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بنُ سَلُول، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ أَنْ يُكَفِّنَ فِيهِ أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ». قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾. (صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين، برقم ١٣٦٦. وصحيح مسلم: باب من فضائل عمر، برقم ٦٣٦٠).

التفسير:

نهى الله تعالى رسولَه ﷺ أن يصلِّي على مَنْ مات من المنافقين، كما نهى أن يقف على قبره للدعاء له بالمغفرة، ذلك أنهم كفروا بالله وكفروا برسوله، وماتوا وهم خارجون عن طاعة الله، ومَنْ كان كذلك لا يُصَلَّى عليه، ولا يُدْعى له.

٨٥ ـ ولا تُعْجِبْك ـ أيها الرسول ـ أموال هؤلاء المنافقين، ولا أولادهم، إنما يريد الله أن يُعَذِّبهم بها في الحياة الدنيا، وذلك بما يُعانونه من المشاقِّ في سبيلها، وما يُصابون به من مصائب فيها، وأن تخرج أرواحهم من أجسادهم وهم على كفرهم.

٨٦ ـ وإذا أنزل الله سورةً على نبيه محمد ﷺ متضمنةً للأمر بالإيمان بالله والجهاد في سبيله، طلب الإذن في التخلُّفِ عنك أصحابُ اليسار منهم، وقالوا: اتركنا نتخَلَّف مع أصحاب الأعذار كالضعفاء والزَّمْنى.

٨٧ ـ رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم الذلة والمهانة، حين رَضُوا أن يتخَلَّفوا مع النساء وأصحاب الأعذار، وختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم ونفاقهم، فهم لا يعلمون ما فيه مصلحتهم.

٨٨ ـ أما الرسول والمؤمنون معه فلم يَتَخَلَّفوا عن الجهاد في سبيل الله مثل هؤلاء، وإنما جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وكان جزاؤهم عند الله حصول المنافع الدنيوية لهم كالنصر والغنائم، وحصول المنافع الأخروية، ومنها دخول الجنة، وحصول الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الاقتصار على الطَّوْل في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يدلُّ على أن أُولي الطَّول مراد بهم مَنْ له قدرة على الجهاد بالمال والبدن، فبوجود الطَّوْل انتفى عذرهم.

٢ ـ أسند ﷻ الطَّبْعَ إلى المجهول في قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إمَّا للعلم بفاعله وهو الله، وإمَّا للإشارة إلى أنَّهم خُلِقوا كذلك، وجُبِلُوا عليه. وفَرَّع على الطبع غيابُ علمهم بالأمور التي يختص بعلمها أهل

الأفهام، وهو العِلْمُ المعبر عنه بالفقه، أي: إدراك الأشياء الخفيَّة، فهم آثروا نعمة الدَّعة على سِمَة الشجاعة، وعلى ثواب الجهاد، إذ لم يُدْركوا إلا المحسوسات، فلذلك لم يكونوا ذوي فقه، وذلك أصل جميع المضارِّ في الدارين.

٣ ـ ابتدأ ﷻ وصف أحوال المؤمنين بوصف حال الرسول في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾؛ لأنَّ تَعَلُّقَهم به واتِّباعهم إياه هو أصل كمالهم وخيرهم.

٤ ـ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، جاءت (مَعَهُ) في موضع الحال من (الَّذِينَ)؛ لتدلَّ على أنَّهم أتباع له في كل حال وفي كل أمر، فإيمانهم معه لأنهم آمنوا به عند دعوته إياهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم معه. وفيه إشارة إلى أن الخيرات المبثوثة لهم في الدنيا والآخرة تابعةٌ لخيراته ومقاماته.

٥ ـ دَلَّت الآيات على أنَّ رؤساء المنافقين القادرين على الجهاد بالمال والنفس تَخَلَّفوا عن الجهاد مع النبي ﷺ، ورَضُوا لأنفسهم المذلَّة والمهانة بالقعود مع العاجزين عن الخروج للجهاد. وقد أدَّى ذلك إلى الطبع على قلوبهم، فأصبحوا لا يميزون بين الخير والشر، ولا بين المصلحة والضرر.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

التفسير:

٨٩ ـ ثم بَيَّنَ ﷻ الفلاح الأعظم فقال: هيأ الله لهم جنات تجري من

تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، لا يلحقهم فناء. ذلك الجزاء هو الفلاح العظيم الذي لا يدانيه فلاح.

٩٠ ـ وجاء قوم من أعراب المدينة يعتذرون إلى رسول الله ﷺ؛ ليأذن لهم في التخلف عن الخروج والجهاد في سبيل الله، وقعد قوم آخرون لم يعتذروا تَعَنُّتاً منهم، سينال الذين كفروا من هؤلاء الأعراب ـ وهم الذين اعتذروا بأعذار باطلة ـ والذين لم يعتذروا تَعَنُّتاً، عذابٌ موجعٌ في الدنيا، وفي الآخرة بالنار.

٩١ ـ ليس على النساء والصبيان والمرضى والعجزة من الزِّمْنى والعُمْي والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه من المال ليتجهزوا به، ليس على هؤلاء جميعاً إثمٌ في التخلُّف عن الخروج؛ لأنَّ أعذارهم قائمة إذا أخلصوا لله ورسوله، وعملوا بشرعه. ليس على المحسنين من أصحاب هذه الأعذار مأثم ولا مؤاخذة. والله غفورٌ لذنوب المحسنين، رحيم بهم.

٩٢ ـ ولا إثم كذلك على المتخلِّفين عنك، الذين إن جاؤوك ـ أيها الرسول ـ يطلبون ما تَحْمِلُهم عليه من الدوابِّ، وقلتَ لهم: لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابِّ، تَوَلَّوا عنك، وقد فاضت دموعهم أَسَفاً على أنهم لم يجدوا ما ينفقون من عند أنفسهم، أو من عندك.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ دَلَّت الآيات على حال المؤمنين ومآلهم، فحالهم أنهم بذلوا المال والنفس فيطلب رضوان الله والتقرب إليه، ومآلهم تحصيل الخيرات أي: منافع الدارين، والفوز بالجنة، والتخلص من العقاب والعذاب.

٢ ـ اختيار صيغة المعذرين في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ من لطائف القرآن؛ لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

٣ ـ جملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل، والواو اعتراضية، أي: كثير المغفرة، ومن مغفرته أنه لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد، كثير الرحمة بالناس. ومن رحمته أنه لم يُكَلِّف أهل الأعذار ما يشق عليهم.

٤ ـ أوضحت الآيات إسقاط فرضية الجهاد؛ بسبب العذر عن أصناف ثلاثة من ذوي الأعذار، وهم: الضعفاء والمرضى والفقراء، وأنه لا حرج

ولا إثم على المعذورين بسبب القعود عن الجهاد، وهم قومٌ عُرِفَ عُذْرُهم، كأرباب الزَّمانة والهَرَمِ والعمى والعَرَجِ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ
وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟
لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا
ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ
مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن
يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا
قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

التفسير:

٩٣ ـ إنَّما الإثم والعار على الذين يطلبون منك الإذن بعدم الخروج إلى الجهاد، وهم أغنياءُ قادرون على الإنفاق للجهاد، فلا عذر لهم، ورَضُوا بالدنيئة التي تُنْقِصُ من شِيَمِ الرجال، وقعدوا في بيوتهم كالعَجَزَةِ والنساء القواعد والأطفال، وختم الله على قلوبهم، فهم لا يعلمون اتِّباع الحق.

٩٤ ـ سيعتذر هؤلاء المتخلِّفون إليكم ـ أيها المؤمنون ـ عن الجهاد بعد عودتكم من غزوة (تبوك). قل يا رسولَ اللهِ: لا تعتذروا بأيِّ عذر، فلن نُصَدِّقَكم، قد أخبرنا الله تعالى بالوحي حقيقة أمركم وكَذِبَكم، وسيرى اللهُ تعالى ورسوله ﷺ عَمَلَكم فيما بعد، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ثم

تعودون بعدُ إلى الله تعالى الذي يعلم السرَّ والعلانية، فيخبركم إخباراً عظيماً عن شرِّ أعمالكم؛ ليجازيَكم عليها.

٩٥ ـ يُنَفِّر الله تعالى من التخلف عن الجهاد من غير عذر شرعي: سيُقْسِمون لكم بالله تأكيداً لأعذارهم الواهية إذا رجعتم إليهم؛ لتصفحوا عنهم ولا تُوَبِّخوهم، فاتركوهم واهجُروهم؛ لخبث أقوالهم وسوء أفعالهم، ومصيرُهم نار جهنم، عقوبةً لهم بسبب ارتكابهم الجرائم والكبائر.

٩٦ ـ يحلف هؤلاء المنافقون لكم ـ أيها المؤمنون ـ أيماناً كاذبةً؛ لاسترضائكم واستمالتكم حتى لا تفضحوهم، فإن رَضِيتم عنهم وعَذَرْتموهم فإنَّ الله تعالى قد سَخِطَ عليهم، فلا يرضى عن القوم المخالفين أحكامَه.

٩٧ ـ بعض أهل البادية أشدُّ كفراً من أهل الحاضرة؛ لبُعْدِهم عن العلم والعلماء، وهم أجدر من غيرهم ألَّا يعلموا الأحكام والشريعة التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ. والله عليمٌ بأحوال عباده، حكيمٌ في تدبير شؤونهم.

٩٨ ـ وبعض البدو يَعُدُّ ما يعطيه من المال في سبيل الله غرامة وضياعاً، وينتظر نزول المصائب والنكبات بكم، بَيْدَ أنَّ الله يدعو على هؤلاء بمثل ذلك من عواقب السوء. والله سميع للأقوال، وعليم بالأفعال والنيات.

٩٩ ـ وبعضُ البدو يُصَدِّق بالله تعالى، وبالبعث بعد الموت، ويَعُدُّ ما يعطيه من المال في سبيل الله طاعةً ورضاً لله، وسبباً لدعاء الرسول ﷺ له. ألا إنَّ نفقاتهم ودعاء الرسول لهم تُقَرِّبهم إلى الله تعالى. وَعَدَهم الله أنَّه سَيُدْخلهم في رحمته الواسعة، وجنَّاته الكريمة. إنَّ الله غفور لِمَنْ يتوب منهم، رحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ عن كعب بن مالك رضي الله عنه حين تَخَلَّف عن تبوك قال: «واللهِ ما أنعم الله عليَّ من نعمة بعد إذ هداني أعظم من صدق رسول الله ﷺ، ألَّا أكونَ كَذَّبْتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أُنزل الوحيُ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾».

(صحيح البخاري ٨/ ١٩١ برقم ٤٦٧٣ ـ كتاب التفسير ـ سورة التوبة، باب (الآية).

صحيح مسلم ٤/ ٢١٢٧ ـ ٢١٢٨ برقم ٢٧٦٩ ضمن حديث توبة كعب بن مالك ـ كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه).

٢ ـ تحريم التخلف عن الجهاد، إذا طلب ذلك الإمام.

٣ ـ المنافق يَظْهرُ حالُه في الشدائد.

٤ ـ التحذير من مكايد المنافقين وصفاتهم.

٥ ـ بيان خطورة الجهل الذي يَجُرُّ إلى الكبائر.

٦ ـ أهل البادية متفاوتون في العلم والدين، وبُعْدِ بعضهم عن مجالس الفقه والعلم الشرعي.

٧ ـ بُشرى للذين يَتَّبعون هَدْيَ الصحابة رضي الله عنهم بالنعيم المقيم في جنات النعيم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ
ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا
يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

التفسير:

١٠٠ ـ والصحابة السابقون إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والهجرة إلى دار الإسلام، والنصرة لإخوانهم ودينهم، والذين سلكوا طريقهم بإحسان

في الأقوال والأفعال رضي الله عنهم بذلك، ورَضُوا عنه؛ لما أجزل لهم من الثواب العظيم، إذ هيأ لهم بساتين تجري الأنهار من تحت القصور والأشجار، ماكثين فيها أبداً. ذلك المقام الكريم هو الفلاح العظيم.

١٠١ ـ وبعض البدو الذين حول (المدينة) منافقون، وكذلك بعض أهل (المدينة) استمروا على النفاق واستفحل فيهم، لا تعلمهم يا رسول الله؛ لمهارتهم في النفاق، نحن ـ لِما لنا من عظمة وقدرة ـ نَعْلَمُهم، سنُعذِّبهم مرتين: في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر، ثم يجمعهم يوم القيامة في نار جهنَّم، وما فيها من عذاب شديد الألم.

١٠٢ ـ سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ قال: كان عشرة رهط تَخَلَّفُوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسَواري المسجد، فكان ممر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم، فلما رآهم قال: «**مَنْ هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسَّواري؟**» قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له، تَخَلَّفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفسهم، وحلفوا إنهم لا يطلقهم أحد، حتى يُطْلِقَهم النبي ﷺ ويَعْذِرَهم، فقال النبي ﷺ: «**وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أَعْذِرُهم حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقُهم ويُعْذِرُهم، رغبوا عني، وتَخَلَّفوا عن الغزو مع المسلمين**»، فلما بلغهم ذلك قالوا: نحن والله لا نُطْلِقُ أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطْلِقُنا فأنزل الله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعَذَرهم. (ينظر: التفسير الصحيح ٣/ ٢٠٨).

التفسير:

وجماعة آخرون من أهل (المدينة) وخارجها أقَرُّوا بما فعلوا من الذنوب وتابوا منها، خلطوا عملاً صالحاً بمشاركتهم مع النبي ﷺ في الجهاد في سبيل الله، وعملاً سيئاً بتَخَلُّفِهم عن غزوة (تبوك)، ليتوب الله تعالى عليهم. إنَّه سبحانه غفور لِمَنْ تاب من عباده، رحيم بهم، يقبل توبتهم.

عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «**أتاني الليلة**

آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلِبَنِ ذهب ولِبَنِ فضة، فتلقَّانا رجالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهم، كأحسنِ ما أنت راءٍ، وشَطْرٌ كأقبحِ ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعُوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم، فصاروا في أحسن صورة. قالا لي: هذه جنة عدن، وهذاك منزلك، قالا: أما القوم الذين كانوا: شطرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطْرٌ منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم».

(صحيح البخاري ٨/ ١٩٢ برقم ٤٦٧٤ ـ كتاب التفسير ـ سورة التوبة، باب (الآية).

١٠٣ ـ سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعَذَّرهم، فجاؤوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدَّقْ بها عنا، واستغفر لنا، قال: **«ما أمرت أن آخُذَ أموالكم»** فأنزل الله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآية. (ينظر: التفسير الصحيح ٣/ ٢٠٨).

التفسير:

خُذْ يا رسولَ الله مِنْ هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا، صدقة تُطَهِّرُهم من الذنوب، وتُنَمِّي حسناتهم؛ حتى يَرْقَوا إلى مرتبة الإخلاص لله تعالى، وادْعُ الله، واطلب المغفرة لهم. إنَّ دعاءك واستغفارك رحمة عظيمة لهم، وتثبيتٌ لقلوبهم. والله سميع للدعاء والأقوال، وعليم بالتوبة والأفعال.

١٠٤ ـ أما عَلِمَ أولئك المتخلِّفون عن الجهاد سَعَةَ رحمة الله وعموم كرمه، بأنَّه يقبل توبة عباده التائبين، ويتقبَّل الصدقات، ويُثيب عليها، وأنَّ الله هو كثير التوبة على عباده التائبين، واسع الرحمة بهم؟

١٠٥ ـ وقل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء التائبين وغيرهم: اعملوا ما أمركم الله من خير، فستُعْرَضُ أعمالُكم على الله تعالى، ويراها هو سبحانه ورسوله ﷺ والمؤمنون، وستعودون يوم الحساب إلى مَنْ يعلم سِرَّكم وجهركم، فيخبركم خبراً عظيماً يسرد فيه ما عَمِلْتُم من خير أو شر؛ ليجازيَكم عليه.

١٠٦ ـ وجماعة آخرون من المتخلِّفين عن غزوة (تبوك) مُؤَجَّلون إلى أن يظهر فيهم حُكْمُ الله تعالى، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع،

وهلال بن أُمية رضي الله عنهم أجمعين، فهؤلاء إمَّا أن يُعَذِّبهم إن لم يتوبوا، وإمَّا أن يتوب عليهم إذا تابوا وأصلحوا وأخلصوا، وقد فعلوا. والله عليم بتوبة الصادقين، حكيم في تدبيره للعالمين.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الصدقة سبب في تزكية النفوس، وطهارة للأموال.

٢ ـ الإشارة بالبشرى لـمَنْ يعمل خيراً.

٣ ـ الاعتراف بالذنب فضيلة، وهو من الأخلاق النبيلة.

٤ ـ إذا تساوت محاسنُ العبد التائب مع مساوئه فإنَّ الله تعالى يتوب عليه برحمته الواسعة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ
فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن
يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ
خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَواْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ
وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ
ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ
بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

التفسير:

١٠٧ ـ والمنافقون الذين خانوا الله ورسوله، وبالغوا في الإجرام، وعلى

رأسهم المِضْلال أبو عامر الراهب الذي أمر ببناء مسجد الضرار؛ لتدبير المكايد ونشر المصايد، ونصرة الكفرة المكرة، وإيجاد الفُرقة والاختلاف بين المؤمنين؛ لصَرْفِهم عن مسجد قباء، وتَرَقُّباً بشوق؛ لقدوم مَنْ حارب الله ورسوله من قبلُ ـ وهو أبو عامر الراهب ـ ويُؤَكِّدون كَذِبَهم بأنَّهم يحلفون: ما قصدوا ببنائه إلا الخير والإحسان بالمُصَلِّين العاجزين عن السير إلى (مسجد قباء). والله تعالى العليم الخبير، يشهد على أنَّهم كاذبون في قولهم وفعلهم.

١٠٨ ـ سبب النزول:

أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسندَيهما الحسن من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ وهم أناس من الأنصار، ابْتَنَوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنُوا مسجدكم، واستمدُّوا بما استطعتم من قوة وسلاح، فإني ذاهب إلى قيصرَ مَلِكِ الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخْرِجُ محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾.

قال الحافظ ابن حجر: «وعند أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ في أهل قباء». (فتح الباري: ٧/ ٢٤٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان مسجد قُباء أُسِّس على التقوى، ومسجده أعظم في تأسيسه على التقوى من مسجد قُباء، كما ثبت في الصحيح عنه: أنه سُئِلَ عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى فقال: (مسجدي هذا) فكلا المسجدين أُسِّس على التقوى، ولكن اختصَّ مسجدُه بأنَّه أكمل في هذا الوصف من غيره». (تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٤٤٧).

التفسير:

ثم نهى الله تعالى النبي ﷺ نهياً قاطعاً عن الصلاة في مسجد الضرار الذي أُسِّس على الفتنة، وبَيَّن أنَّ الصلاة في (مسجد قباء) الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم دخل فيه النبيُّ ﷺ مهاجراً، أولى بأن تقوم فيه مُصَلِّياً من

(مسجد الضرار). في مسجد قباء رجالٌ أثنى الله تعالى عليهم بأنَّهم يُحِبُّون أن يتطهَّروا من الذنوب، ويتطهَّروا بالوضوء والاغتسال من الأوساخ والنجاسات. والله تعالى يُحِبُّ المحافظين على طهارة أبدانهم وقلوبهم.

١٠٩ ـ لا يستوي الذي أُسِّس بنيانه على قاعدة متينة، وهي تقوى الله ورضوانه، والذي أُسِّس بنيانه على طرفِ وادٍ مُتصَدِّع يُوشك أن يسقط، فبنى مسجداً ضِراراً أو كفراً، فأدَّى به إلى سقوطه في نار جهنم. والله تعالى لا يُوَفِّق المُعتدين على المسلمين والدين.

١١٠ ـ لا يزال بناءُ مسجد الضرار وهدمه سبباً للشك وتَعاظُمِ النفاق في قلوبهم إلى أن يموتوا غمَّاً أو يندموا ندماً على فعلتهم الماكرة. والله عليم بالنيات والأحوال، حكيم في الأقوال والأفعال.

١١١ ـ يُخبر الله تعالى خبراً صادقاً، ويَعِدُ وعداً حقاً بمبايعة عظيمة: أنَّه سبحانه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فهي الثمن والسلعة المبيعة مقابل الجنة، فجعل ثواب المجاهدين الذين يُقاتِلون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وعداً حقاً ثابتاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ولا أحدَ أوفى بالعهد، وإنجاز الوعد، من الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد. فاستبشروا خيراً بهذه المبايعة المباركة التي بايعتم الله تعالى بها. وذلك البيع العظيم والمقام الكريم هو الفَلاح الذي لا فَلاحَ أعظمُ منه.

١١٢ ـ ومن صفات المؤمنين الذين لهم البشرى بدخول الجنة: أنَّهم التائبون عن ذنوبهم، والمخلصون المكثرون للعبادة، الحامدون لله في السرَّاء والضرَّاء، السائرون في الأرض لطَلَبِ العلم أو الغزو، الراكعون الساجدون في صلاتهم، الدَّاعُون الناس إلى الرشد والهدى، والناهون عن الفساد والضلال، المُحافظون على فرائض الله، وبَشِّر ـ يا رسول الله ـ هؤلاء المؤمنين المُتصفين بهذه الصفات بجنات النعيم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ التحذير من صنائع المنافقين التي ظاهرها الخير، وباطنها الشر.

٢ ـ الابتعاد من مواطن الشبهة مطلوب من المؤمنين.

٣ ـ الترغيب في بناء المساجد على التقوى، وليس على السُّمعة والرياء فضلاً عن تفريق صف المسلمين.

٤ ـ الترغيب في الجهاد في سبيل الله؛ للفوز بجنات النعيم.

٥ ـ في الآية (١١١) إخبار مستقبلي عن البشرى بالجنَّة لِمَنْ أوفى البيعة مع الله تعالى.

٦ ـ الثناء على أهل الطهارة والنظافة.

٧ ـ حَثُّ المؤمنين على الصفات المذكورة في الآية (١١٢)، وترغيبهم فيها بالبشرى بجنات النعيم.

٨ ـ الإشارة إلى المحافظة على صلاة الجماعة.

٩ ـ ينظر: صورة مسجد قباء، كما في الملحق.

١٠ ـ ينظر: صورة المسجد النبوي، كما في الملحق.

١١ ـ ينظر: صورة بنيان على شفا جُرُفٍ هارٍ، كما في الملحق.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ
وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾
لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا
كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ
ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا
مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

١١٣ ـ سبب النزول:

عن سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه قال: لما حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة،

دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية، فقال النبي ﷺ: «أيْ عَمّ، قل: لا إله إلا الله، أُحاجُّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية: يا أبا طالب، أترغب عن مِلَّةِ عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: «لَأَستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنه»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

(صحيح البخاري ٨/ ١٩٢ برقم ٤٦٧٥ ـ كتاب التفسير ـ سورة التوبة، باب (الآية)، وأيضاً ٧/ ٢٣٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب قصة أبي طالب. وصحيح مسلم ١/ ٥٤ برقم ٢٤، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت).

التفسير:

ليس للنبي ﷺ ولا للمؤمنين أن يطلبوا من الله تعالى المغفرة للمشركين، ولو كان المشركون أقرباء لهم من بعد موتهم على الشرك بالله تعالى، وتبيَّن لهم أنَّهم أصحاب النار؛ لأنَّ الله تعالى حَرَّم الجنة عليهم.

١١٤ ـ صَدَرَ الاستغفار من إبراهيم عليه السلام لأبيه آزرَ من أجل وعد سابق وعد به أباه. فلمَّا تبيَّن لإبراهيم عليه السلام أنَّ أباه عدو لله بسبب إصراره على الكفر تَبَرَّأ منه، وترك الاستغفار له. إنَّ إبراهيم توَّاب، كثير الدعاء والاستغفار لله، صبور على مَنْ يؤذيه.

١١٥ ـ إنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية، فإنَّه تعالى يتمِّم عليهم إحسانه، ويبيِّن لهم ما يحتاجون إليه من الشريعة التي تجعلهم من المتَّقين له سبحانه. إنَّ الله تعالى عليم بكل شيء من الأشياء، وبمَنْ يستحقُّ الهداية.

١١٦ ـ إنّ الله تعالى له مَلَكُوت السموات السبع والأرضين السبع، يُحْيي وحدَه مَنْ يشاء، ويُميت مَنْ يشاء. وما لكم ـ أيها الناس ـ من أحد غير الله يَتَوَلَّاكم، وينصركم.

١١٧ ـ سبب النزول:

أن عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب بن مالك ـ قال: سَمِعْتُ كعب بن مالك يُحدِّث حين تَخَلَّف عن قصة تبوك، فوالله ما أعلم أحداً أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني، ما تَعَمَّدْتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد

تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].
(صحيح البخاري ٨/ ١٩٤ برقم ٤٦٧٨ ـ كتاب التفسير ـ سورة التوبة، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾).

التفسير:

قسماً إنَّ الله تعالى رزق النبيَّ ﷺ الإنابة إلى طاعته، وإنَّه تاب على الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وقت شدَّةِ الحرِّ وطولِ السفر، فلم يُؤاخِذْهم ببعض الزَّلَّات التي حصلت منهم في تلك الغزوة، من بعد أن قارَبَتْ قلوب بعضهم أن تميل عن الحق، وتتخلَّفَ عن الجهاد بسبب مشقَّة السفر، وشدَّة الحر، وقلَّة الزاد. وبلطفه سبحانه وبرحمته وَفَّقهم للثبات، وتاب عليهم لَـمَّا ندموا. إنَّه سبحانه رؤوف بالعباد، رحيم بهم.

١١٨ ـ وتاب الله سبحانه على الصحابة: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُميَّة رضي الله عنهم، الذين تَخَلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وحزنوا حزناً شديداً بسبب مُقاطعة المؤمنين لهم، حتى ضاقت الأرض بهم مع سَعتها، وأيقنوا أن لا نجاة لهم من عذاب الله إلا التوبة والاستغفار، ثم تاب الله عليهم بعد خمسين يوماً؛ ليستقيموا ويداوموا على التوبة. إنَّ الله هو التوَّاب على عباده التائبين، الرحيم بهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تحريم الاستغفار للمشركين.
٢ ـ رابطة العقيدة أقوى من رابطة النسب.
٣ ـ النصر من عند الله مع الأخذ بالأسباب.
٤ ـ مِنْ رحمة الله تعالى قَبولُه توبةَ المتخلِّف عن الجهاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ
حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا
كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ
كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا
رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

التفسير:

١١٩ ـ يُخاطب الله تعالى الـمُؤمنين أن يَتَّقوه في طاعة أوامره، واجتناب نواهيه، وأن يَصْدُقوا في أقوالهم وعهودهم وأفعالهم.

١٢٠ ـ ١٢١ ـ ثم يحثُّ أهل المدينة من المهاجرين والأنصار ومَنْ حولها من أهل البادية المسلمين أنَّه لا يَليق بهم أن يَتَخَلَّفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله، ولا ينشدوا الراحة لأنفسهم ورسول الله ﷺ في مشقَّة. وذلك أنَّه مهما يصبهم من الشدائد فإنَّه في رصيد أعمالهم الصالحة، فلا يُصيبهم عطش ولا تعب ولا جوع وهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يَنْزِلُون مكاناً يُغْضِبُ الكفَّار نزولُهم فيه، ولا يصيبون أعداءهم بشيء من القتل أو الأسر إلا كُتِبَ لهم أَجْرُ عملهم، وصار قُربةً لهم عند الله تعالى. إنَّ الله تعالى لا يُضيِّع ثواب المُحسنين، ولا يُنفقون في سبيل الله من نفقة مهما كانت قليلة أو كثيرة، ولا يجتازون للجهاد وادياً وأرضاً إلا كُتِبَ لهم ثوابه الحسن؛ ليجزيَهم اللهُ أحسنَ ما يُجْزون به على إحسانهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩]، و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١]، نسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢].

(أخرجه أبو داود في السنن برقم ٢٥٠٥ ـ كتاب الجهاد، باب في النسخ نفير العامة بالخاصة، وقال الألباني: حسن، صحيح أبي داود ٢/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦ برقم ٢١٨٧).

١٢٢ ـ إنَّ الأُمَّة تحتاج إلى التفقه في الدين في كلِّ الأحوال، فلا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا جميعاً، ويتركوا الباقين بدون فقيه ـ يختاره الإمام ليُبَصِّرهم بأمور دينهم ـ بل تنفر سرايا من كل قبيلة، وتبقى فئة قليلة للتفقه في الشريعة، وإنذار السرايا التي نفرت إذا رجعوا إلى بلدهم؛ كي يحذروا عذاب الله تعالى بمخالفة أحكامه.

١٢٣ ـ يأمر الله تعالى المؤمنين بقتال أعدائهم الكفَّار، ويُرْشِدُهم أن يبدؤوا بالأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام، وأمرهم بالشدَّة والجرأة على أولئك الكفَّار؛ ليَكُفُّوا عن الكفر وأذى المؤمنين، ثم ذكر سبحانه تأكيده وتأييده ونَصْرَه للمتقين.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ في السَّرَّاء والضرَّاء، ولاسيما في الجهاد.

٢ ـ الإشارة إلى وجوب الدفاع عن النبي ﷺ في حياته ومماته، ونفسه أغلى النفوس.

٣ ـ القيام بواجب الجهاد في سبيل الله لا يعفي الأُمة عن طلب العلم ولا يقلل من أهمِّيَّته.

٤ ـ وجوب طلب العلم بالأحكام الشرعية على طائفة من المسلمين على الكفاية، أي: على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك الوجوب.

٥ ـ وجوب قتال الأعداء من الكفار الذين يُؤذون المؤمنين، ويكيدون لهم.

٦ ـ بشرى الله تعالى بالنصر والمؤازرة للمتقين.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾

التفسير:

١٢٤ ـ وإذا ما أُنزلَتْ سورة عظيمة من سور القرآن يستهزئ المنافقون بها، فيقولون فيما بينهم استخفافاً بها: أيُّ واحدٍ منكم زادته هذه السورة التي أُنزلت إيماناً بالله؟ فأمَّا المؤمنون فقد زادتهم تصديقاً، بما فيها من الهداية والبراهين التي تدلُّ على عظمة الله تعالى، وهم يفرحون بهذا النور والثواب.

١٢٥ ـ وأمَّا المنافقون الذين في قلوبهم ارتياب واضطراب، فإنَّ نزولَ السورة يزيدهم اضطراباً وضلالاً إلى ضلالهم ورِجْسهم، وهُلِكُوا وهم مُتمادُون بتكذيبهم لله تعالى وآياته.

١٢٦ ـ يُوَبِّخ الله تعالى المنافقين مُنْكِراً عليهم: أولا يرى هؤلاء المنافقون أنَّ الله يَبْتليهم بالقحط والشدَّة والغزو، وما يزجرهم في كل عام مرة أو مرتين؟ ثم يستمرون على ضلالهم، فلا يتوبون، ولا يَتَّعظون بما وقع فيهم من المصائب.

١٢٧ ـ ينزعج المُنافقون من نزول سورةٍ تفضح أسرارهم، وتهتك أستارهم، فإذا ما أُنْزِلَتْ سورة من القرآن الكريم تذكر عيوبهم نَظَرَ بعضهم إلى بعض بالغمز سخريةً وغيظاً، ثم إذا أراد بعضهم الهروب من مجلس النبي ﷺ قال بعضهم لبعض: هل يراكم أحد من المؤمنين إن تَسَلَّلْتم؟ ثم انصرفوا.

صَرَفَ الله تعالى قلوبهم عن الخير والهداية، بسبب أنَّهم قوم لا يفقهون اتِّباع الحق.

١٢٨ ـ قسماً لقد جاءكم ـ أيُّها المؤمنون ـ رسولٌ عظيم من قومكم، يَشُقُّ عليه ما تُواجهون من المكاره والابتلاء، حريص على إيمانكم وأمانكم من النار، شديد الشفقة والرحمة بالمؤمنين.

١٢٩ ـ فإن أعرض الكفَّار والمنافقون عن التصديق بك أيها النبيُّ، فقل لهم: إنَّ الله تعالى يكفيني ناصراً، لا معبود بحق إلا هو، عليه وحده اعتمدت، وهو ربُّ العرش العظيم، ذلك العرش الذي هو أعظم المخلوقات.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ خُبْثُ المنافقين يزيدهم عناداً عند سماعهم القرآن.

٢ ـ بيان رأفة النبي ﷺ بالمؤمنين.

٣ ـ الإشارة إلى فضل العرب لأنَّ النبي ﷺ منهم.

٤ ـ بشرى بنصر الله تعالى للنبي ﷺ وقد تحققت.